الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

الخليفة الأول:

عبيد الله المهدي

تأليف
الدكتور عارف تامر

دار الجيل | دار دمشق



الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

هذه الموسوعة :

على صفحات هذه الموسوعة التاريخية ، نقدم لمحات من تاريخ الخلفاء الفاطميين الذين حكموا جزءاً كبيراً من العالمين العربي والإسلامي في فترة زمنية أربت على القرنين والنصف .

وعندما تأخذ « دار دمشق » و « دار الجيل » للطباعة والنشر على عاتقهما مهمة طبع هذه الموسوعة، وإصدارها خلال عام ١٩٨٠ في عشرة أجزاء متتابعة ومستقلة بدءاً بعبيد الله المهدي ، وانتهاءً بالآمر بأحكام الله ؛ فتكونا قد سدّتا فراغاً واسعاً في تاريخنا العربي . وخطتا خطوة جبّارة في سبيل إحياء التراث . وأزاحتا الستار عن فترة تاريخية مجهولة ، فأظهرتها لعالم النور صحيحة لا شائبة فيها .

أما نحن فعندما نتعهد بإنجاز هذه المهمة الشاقة ؛ فلا بد لنا من الوقوف أمام القارىء الكريم . والإفصاح له عن التزامنا

بمبدأ الحياد التام ، والاضطلاع بدور المؤرخ المنصف المتجرد الذي يكتب للتاريخ من التاريخ دون زيادة أو نقصان مع تجنب الخوض في الشؤون الدينية ، والقضايا المثيرة للرواسب الدفينة ، وللأحقاد الموروثة .

مهمتنا هي تاريخية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وتقوم على أساس من الموضوعية ، والحقيقة ، وإيراد الوقائع مستقاة من أوثق المصادر بصدق ونزاهة ونقاوة وجدان بعيدة عن العاطفة والمغالاة .



المؤلف

أسماء الخلفاء الفاطميين العشرة :

الرقم المتسلسل	اسم الخليفة	تاريخ الولادة	تاريخ الوفاة	سنين الحياة	تاريخ تسلمه الحكم	تاريخ الوفاة	مدة الحكم	ملاحظات
١	عبيد الله المهدي	٢٥٩	٣٢٢	٦٣	٢٩٧	٣٢٢	٢٥	المغرب
٢	القائم بأمر الله	٢٧٩	٣٣٤	٥٥	٣٢٢	٣٣٤	١٢	»
٣	المنصور بالله	٣٠٢	٣٤١	٣٩	٣٣٤	٣٤١	٧	»
٤	المعز لدين الله	٣١٩	٣٦٥	٤٦	٣٤١	٣٦٥	٢٤	الديار – المصرية
٥	العزيز بالله	٣٤٤	٣٨٦	٤٢	٣٦٥	٣٨٦	٢١	»
٦	الحاكم بأمر الله	٣٧٥	٤١١	٣٦	٣٨٦	٤١١	٢٥	»
٧	الظاهر بأمر الله	٣٩٥	٤٢٧	٣٢	٤١١	٤٢٧	١٦	»
٨	المستنصر بالله	٤٢٠	٤٨٧	٦٧	٤٢٧	٤٨٧	٦٠	»
٩	أحمد المستعلي	٤٦٧	٤٩٥	٢٨	٤٨٧	٤٩٥	٨	»
١٠	الآمر بأحكام الله	٤٨٧	٥٢٤	٣٧	٤٩٥	٥٢٤	٢٩	»

« عبيد الله المهدي »

شخصية خارقة فذة ضربت المثل الأعلى في الكفاح والجهاد في سبيل تحقيق مبدأ آمنت به ، وقضية اعتقدت بصوابها وحقيقتها .

لم يكتب له الشهرة ، والظهور على مسرح الحياة كما كتب لغيره من العظماء ، ولعلّ هنالك عللاً وأسباباً اعترضت مسيرة التاريخ .

صنفه بعض علماء التاريخ الإنساني في عداد الخالدين الذين انتصروا على الأحداث ، وتخطوا العقبات ، ووصلوا بحرية وأمان إلى شاطىء الأهداف ، وأضاف بعضهم اسمه إلى قائمة الأبطال العالميين الذين دخلوا حرم التاريخ باستحقاق . وتصدروا أبرز صفحاته عن جدارة ، وزادوا على قولهم :

بأن عبيد الله المهدي من العباقرة الذين لا يجود بهم الدهر

إلاّ عندما تمحل الأرض ، وينحبس المطر ، ويعم العقم بني الإنسان .

مؤسس دولة كبرى ، لعبت دوراً مهماً على مسرح الحياة في المشرق والمغرب . . . في تاريخه شؤون وشجون ، وحكايات مثيرة ، وقصص شيقة ، وفي حياته تتجلّى العظمة بأجلى مظاهرها .

اشتهر بالكرم إلى حد جعله مضرب الأمثال ، وامتاز برباطة الجأش ، وأصالة الرأي ، والصبر على المكاره ، وبعد النظر ، ومقارعة الأحداث الطارئة بواقعية ويقظة ، وإرادة لا يرقى إليها التراجع أو التردد .

في رحلته السرية من «سلمية — سورية» إلى سجلماسة في المغرب الأقصى تتجلى براعته وعبقريته ، وضلوعه في التخفي وانتحال الصفات ، والإفلات من كمائن الأعداء ، واختيار الوقت المناسب للعمل الملائم ، وفيها أيضاً ما يدعو إلى التأمل والإعجاب .

عندما كان في «الرملة — فلسطين» أخبر بأن القرامطة وهم فرع من أتباعه المنشقين هاجموا قاعدته «سلمية» وأبادوا أهلها ،

كما أعدموا عائلته البالغ عدد أفرادها ٨٣ شخصاً بين رجل وامرأة وطفل ، فلم توهن عزيمته ، أو يفت في ساعده ، بل تابع سيره إلى هدفه ولسان حاله يردد :

« نحاول ملكاً أو نموتُ فنعذرا »

عُبيد الله من رجال التاريخ ... وكم يكون التاريخ منصفاً وعادلاً عندما يضعه في طليعة الخالدين .



امام الحقيقة :

يعتبر الإسماعيليون المستعليون « البهـَرة » بفرعيهم السليماني والداؤدي وهكذا الدروز – عبيد الله المهدي – إماماً – مستودعاً – Acting or trustee imam وهذا الإصطلاح يعطي تفسيراً بأنه كان إماماً وكيلاً أو وصيّاً أو نائباً للإمام الأصيل لفترة زمنية محدودة ، وليس له صلاحية توريث الإمامة لأحد من أولاده ، فمثله كمثل « الحسَن بن علي » .

بينما يعتبره الإسماعيليون النزاريون إماماً « مستقراً » وصاحب نص ثابت « Permanent or necessary imam » فهو « كالحسين بن علي » له صلاحية توريث الإمامة لمن يقع اختياره عليه من أولاده .

ونحن عندما يبرز أمام أنظارنا هذا الخلاف الجوهري نتجاوزه دونما أي تعليق ، ونمر به مروراً عابراً دون أن نلجأ

إلى الخوض بالتفاصيل . أو المناقشات التي لا تجدي نفعاً ، ولا تفيد العلم . فالانتصار لفريق دون الآخر لا يدخل في نطاق البحث العلمي . ولا يتفق مع مهمة كاتب التاريخ . لاسيما ونحن أمام فريقين يتمسك كل منهما بوجهة نظره . ويدافع عنها بالحجج والمصادر التي يمتلكها .

ومهما يكن من أمر فسواء أكان عبيد الله المهدي إماماً أو نائباً للإمام فكل هذا لا يقف بوجه تقديرنا وإعجابنا بالرجل العظيم الذي كتب في صفحات التاريخ أنصع عبارات البطولة والخلود .

من جهة ثانية ، ولكي يكون القارىء الكريم على معرفة بالوقائع والتفاصيل نضع أمامه مخططين لشجرة النسب الفاطمية :

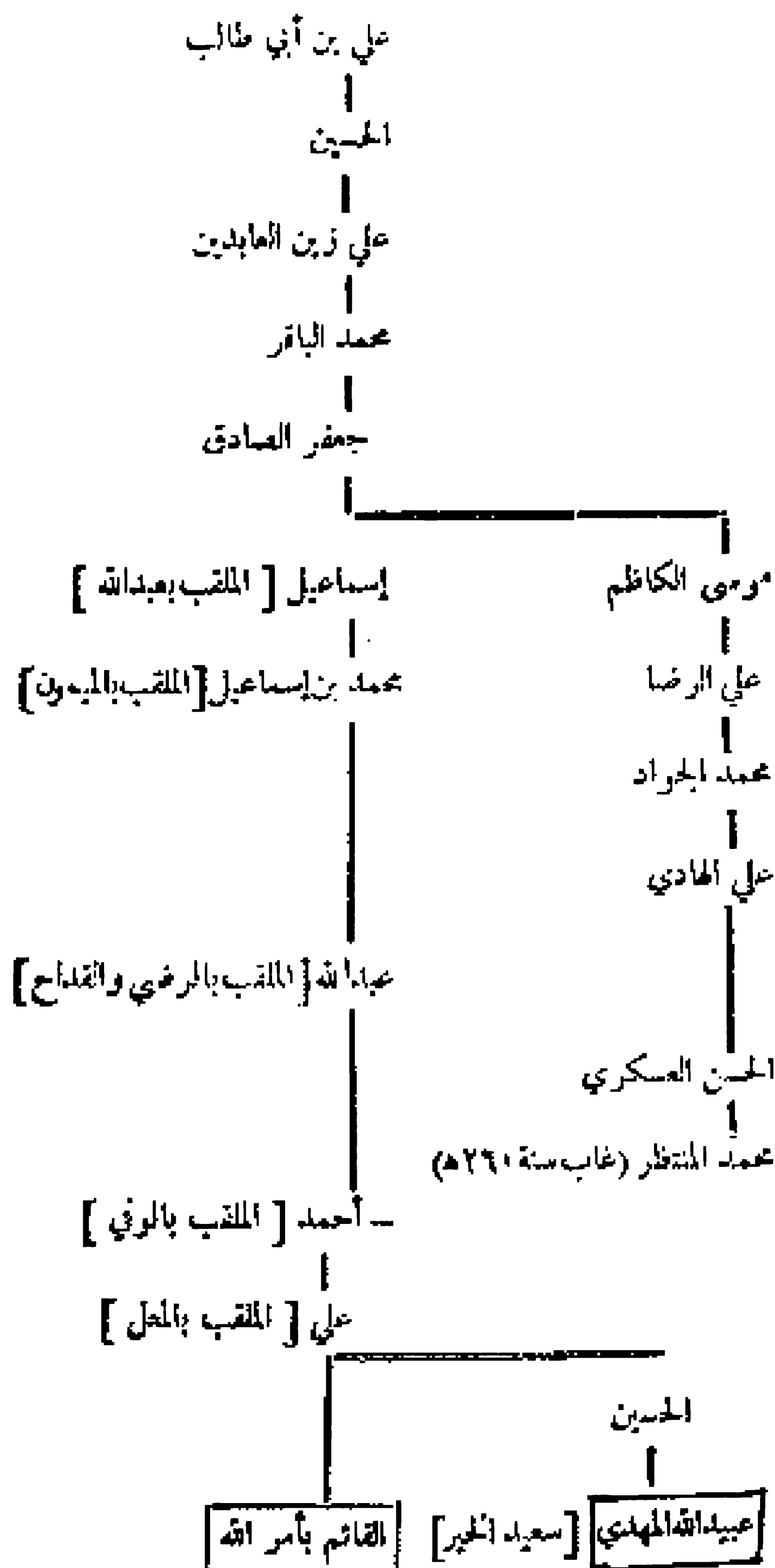
الأول : للإسماعيليين المستعليين كما ورد في كتاب « الفرائض وحدود الدين » لجعفر بن منصور اليمن تحقيق الدكتور حسين همداني — منشورات معهد الدراسات الشرقية في الجامعة الأميركية بالقاهرة سنة ١٩٥٨ م

والثاني : للإسماعيليين النزاريين كما جاء في مصادر

وكتب تاريخية عديدة . وفي هذا نكون قد وضعنا القارىء الكريم في واجهة الأحداث ، ووجهاً إلى وجه أمام الحقائق والوقائع .



شجرة النسب الفاطمية للاسماعيلية المستعلية



شجرة النسب الفاطمية للاسماعيلية النزارية:

علي بن أبي طالب

حسين

زين العابدين

محمد الباقر

جعفر الصادق

موسى الكاظم

علي الرضا

محمد الجواد

علي الهادي

الحسن العسكري

محمد المنتظر

إسماعيل

محمد بن إسماعيل

وفي أحمد

تقي محمد

رضي الدين عبد الله

مهدي محمد [عبيدالله المهدي]

القائم

توضيح وتفسير :

عندما يلقي الفاحص المدقق نظرة عامة على المخططين الإسماعيليين – المستعلي والنزاري . يظهر له جلياً بأن ولدا جعفر الصادق – إسماعيل وموسى – هما الأكثر بروزاً على مسرح الأحداث . بالرغم من أنه كان لجعفر ابناء آخرين .

بعض المصادر التاريخية تذكر بأن إسماعيل مات في حياة والده جعفر . بينما تنفي المصادر الإسماعيلية ذلك نفياً قاطعاً مدعوماً بالبراهين . ولكن كل هذا لم يقف حائلاً دون انشقاق المجموعة الشيعية الجعفرية إلى فرقتين : فرقة سارت وراء موسى وأحفاده من بعده وهي المعروفة (بالأثنى عشرية) بينما ظلّت الفرقة الثانية على ولائها لإسماعيل ولابنه محمد وأبنائهما من بعد وهي (الإسماعيلية) . ومحمد بن إسماعيل هذا استوطن «مدينة تدمر – سورية» . وكان قد قدم إليها من

بلاد الري الفارسية حيث كان يقيم بقرية « محمد أباد » التي سميت باسمه فيما بعد .

كافة المصادر تؤكد أن محمد بن إسماعيل عاش في «تدمر» ولم يبارحها حتى وقت وفاته . وبعد ذلك استوطن أولاده مدينة «سلمية – سورية».وعاشوا فيها بأسماء مستعارة وبسرية مطلقة بعيدين عن أنظار العباسيين حتى وقت ظهور « عبيدالله المهدي » . وعهدهم هذا عرفه المؤرخون : « بعهد الأئمة المستورين » .

في مخطط شجرة النسب الفاطمية للإسماعيليين – المستعليين يظهر عبيد الله وكأنه من فرع آخر من الشجرة – أي أنه ابن عم القائم بأمر الله ، فوالده هو « الحسين » بينما والد القائم هو « علي » ، وعلي والحسين شقيقان .

هناك مصادر أخرى تشير إلى أن والد القائم : علي المعل ، مات في سن مبكرة تاركاً القائم صغيراً مما حدا بعبيـــد الله لأن يحتضنه ، ويقيم نفسه وصيّاً عليه ، ويزيد هذا المصدر فيقول : بأن أم القائم وهي « أم حبيبة » تزوجها عبيد الله بعد وفاة زوجها «علي المعل»،وبذلك يكون المهدي قد أصبح عماً للقائم من جهة والدته ومن جهة والده بآن واحد ، أمّا

في مخطط شجرة النسب الفاطمية للإسماعيليين النزاريين فيظهر العكس . فعبيد الله فيها هو الإمام والأب الشرعي للقائم بأمر الله ولا شيء غير هذا .

ومهما يكن من أمر فنحن ندع الأمور كما هي دونما تعليق كما قلنا تاركين ذلك للأيام فلعلها تجود علينا بمصادر جديدة أكثر إنارة وتوضيحاً .



مدخل الى الكتاب :

عندما أقام العباسيون دولتهم في بغداد على أنقاض الدولة الأموية وجهوا اهتمامهم . وكرسوا جهودهم للقضاء التام على أعداء الخلافة وهم : بقايا الأمويين ، والعناصر المتوثبة من العلويين . وكلاهم يطمع بالخلافة . ويعمل في سبيل الوصول إليها ، فطاردوهم في كل مكان وأحكموا برؤوسهم السيوف ، والتاريخ طافح بذكر المآسي والمظالم والمثالب .

وعندما انقسمت الشيعة إلى إسماعيليين وموسويين ، اتخذ الإسماعيليون زمام المبادرة ، ووقفوا بصمود وعناد بوجه العباسيين يقارعونهم بأساليب جديدة ، وبعقلية علمية تقوم على أسس فكرية ، وقواعد فلسفية ، أفسدت عليهم لذة الحكم ، وعكرت الأجواء . فكان من أبرز مظاهرهم ومخططاتهم وهي أكثر عنفاً وتنظيماً — ثورة القرامطة — التي برزت على مسرح الأحداث كقوة عسكرية جارفة تقض

المضاجع ، وتزعزع الأركان . وأعقبها ظهور الدولة الفاطمية في شمالي أفريقية ،وهي التي امتدت فيما بعد إلى مصر وغيرها من الأقطار العربية حتى دقّت في وقت من الأوقات أبواب بغداد . ويذكرنا بذلك الشاعر الفاطمي ابن هانيء الأندلسي عندما يقول :

تقولُ بنو العباس قد فُتحت مصرُ
فقل لبني العباس قد قضي الأمرُ
وقد جاوز الاسكندريةَ جوهرٌ
تطالعه البشرى ويحفزه النصرُ

أما الفرع الشيعي الموسوي فلم يتسنى له إرساء قواعده السياسية وهكذا ظلّت أعماله ومعارضته تدور في نطاق القضايا الدينية التي وقفت في تلك الازمنة عاجزة عن زعزعة الحكم العباسي القائم . وكل هذا ورد ذكره وتفصيلاته في التاريخ . ولا أرى مجالاً للعودة إليه الآن .

الفاطميون

اصل التسمية

عرفت كلمة « شيعة » أول ما عرفت بعهد الإمام علي بن أبي طالب ، وهذا الاصطلاح أطلق على المجموعة التي سارت في ركابه وقالت بأفضليته واعتباره صاحب الحق الأول بالخلافة الإسلامية بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد انقسمت هذه المجموعة بعد وفاة الإمام علي إلى فروع عديدة أبرزها : الحسنيين والحسينيين — نسبة لولديه الحسن والحسين . وفي عهد الإمام الخامس جعفر الصادق اتخذت المجموعة اسم « الجعفرية » وبعد وفاته انقسمت إلى فرقتين : إسماعيلية نسبة إلى ولده الأكبر إسماعيل ، وموسوية نسبة إلى ولده الأصغر موسى الكاظم .

واسم الإسماعيليين الذي هو موضع بحثنا ظلّ معمولاً به وقائماً حتّى وقت ظهور عبيد الله المهدي ، وقيام الدولة الفاطمية في شمالي افريقيا . إذن . . . لماذا اتخذت هذه المجموعة اسم الفاطمية الجديد في افريقيا ؟

من الواضح أن الأقوال والمزاعم كانت بجملتها تتصاعد في كل مكان ، وكلها تحمل الشك بانتساب أسرة المهدي للإمام علي بن أبي طالب،ولعل فترة الستر في «سلمية» هي التي أسدلت هذا الستار من الشك على الحقيقة . وأوجدت ذلك الواقع الرهيب من المزاعم . من جهة ثانية فإن المهدي وكأني به قد نظر بثاقب فكره بعد وصوله إلى المغرب ، انه قد آن الأوان لدحض تلك المزاعم والأقوال ، فأعلن عن نسبه على اعتباره ينحدر من علي بن أبي طالب ومن فاطمة ابنة الرسول الكريم مباشرة . وفي هذا ما يميزه عن الفروع العلوية الأخرى المنحدرة من علي وزوجاته – غير فاطمة – . من جهة ثانية فقد يكون المهدي قد أدرك بأن اسم فاطمة له وزنه وقدسيته في نفوس عامة المسلمين في ديار المغرب . وأن أي انتساب إليه يضفي على صاحبه التأييد . ويحمل معه المحبة والاحترام . كما وأن إعلان المهدي عن ذلك يعطي الدليل عن تبرأته من « القرامطة – الإسماعيليين » ومن أعمالهم وكانت كما هو واضح قد ساءت سمعتهم في الأوساط الإسلامية المحافظة بعد ارتكابهم الأعمال التخريبية والفظائع الكبرى .

إذن فهذه الأسرة التي أقامت دولتها في المغرب باسم « الفاطمية » هي التي نتناولها بالبحث الآن في هذه الموسوعة التاريخية الفريدة .

عبيد الله المهدي والقرامطة :

هذا الموضوع من أكثر المواضيع تعقيداً وغموضاً في تاريخنا العربي ، وبالرغم من أن بعض المؤرخين قد عالجوه وأولوه اهتمامهم ، وكتبوا عنه الصفحات الطوال ، فإن الحقيقة الناصعة ظلّت بعيدة المنال ، وقابعة في طيات الأزمنة ، ولعل فقدان المصادر . وإهمال النواحي المهمة المعقدة في تاريخنا القديم ، وخلو الساحة من اختصاصيين بالتاريخ الفاطمي ، هو من الأسباب الرئيسية التي حجبت الحقيقة عن الإنظار . ومهدت السبل لإطلاق المزاعم والأقوال ، ونثر الافتراضات والتخمينات .

من المعلوم أن الأئمة « العلويين — الإسماعيليين » الذين اتخذوا من « سلمية — سورية » قاعدة لهم ، ومنطلقاً لنشاطاتهم الفكرية والسياسية بعد فرارهم من العراق وفارس الذي تمّ تحت تأثير ضغط العباسيين . من الواضح أن نزول هؤلاء

الأئمة في هذه البقعة العزلاء البعيدة عن أنظار خلفاء بغداد . سهّل لهم الأسباب . ومهّد أمامهم الطرق . لإطلاق دعاتهم وعماهم بحرية وأمان إلى الأقطار العربية والإسلامية البعيدة والقريبة على السواء . للتبشير بأفكارهم . ونشر مبادىء دعوتهم « الدينية » التي من أولى مبادئها الوصول إلى « الخلافة الإسلامية » . وكانوا من جهة أخرى قد أعلنوا بأنهم ما جاءوا من إيران إلى «سلمية» إلاّ بقصد العمل في التجارة؛واستئجار الأراضي الزراعية ، وغير ذلك من الأعمال الحرة .

ولعلّ إخفاء شخصياتهم ومقاصدهم في بداية أمرهم ساعدهم جداً ، ومهّد لهم السبيل لتأسيس المراكز الدعائية . وإقامة فروع الدعوة . وانتقاء الدعاة . واكتساب المؤيدين والأنصار ، وكل هذا كما قلنا يخفي وراءه هدف واحد هو تقويض دعائم الدولة العباسية . وإقامة نظام حديث على أنقاضها يستند إلى مبدأ حرية الفرد ومساواته . وإنعاش المجتمع والشعب . وتوفير الأمن والرخاء والحياة الأفضل له ، وكل هذا لم يكن ليتم إلاّ بإقامة دولة جديدة متطورة تستند إلى مبدأ العدالة والحرية والمساواة والاشتراكية الصحيحة. مضافاً إلى ذلك التبشير بقرب ظهور « إمام منتظر » يملأ الأرض عدلاً وأمناً . وهذا المبدأ كانوا يعلنون عنه على الملأ

بقولهم : إنهم دعاة لهذا الإمام ؛ وبلغة أصح المكلفون بحمل الأمانة ، ودعوة الناس إلى الانضواء تحت لوائه ، والإيمان به ، وهذا كله كان من الأسباب التي وفرت لهم سبل النجاح وتخطي العقبات ، واستقطاب الناس ، وتوسيع رقعة الدعوة ، واكتساب المؤيدين والأنصار .

أجل . . . كانت كلمة « إمام منتظر » في تلك الفترة من الزمن تشكل قاعدة دينية وفكرية بآن واحد ، وخاصة في مناطق الخليج العربي والكوفة وسواد بغداد وسورية . وفي بلاد أخرى واقعة تحت الحكم العباسي . فالناس في هذه الأرجاء كانوا قد وصلوا إلى مرحلة قصوى من القلق والتبرم من حياة الظلم والتعسف والفساد والاستئثار وإهمال مطاليب الشعب ، وهضمها من جانب مركز الخلافة ومن يحيط بها ؛ فهؤلاء الرعية باتوا يعتقدون بأنهم بحاجة ماسة إلى قائد روحي يجلس على أريكة القيادة ، وبيده أسس العدالة ، وسعادة الشعب وأمنه واستقراره ، وتوفير سبل الحياة الرغيدة للفقراء والضعفاء والمحرومين من طبقات الشعب وكانوا كما ذكرنا قد أصبحوا بحالة يرثى لها من التعاسة والشقاء ، في ظل حكام مغتصبين تصدوا لحمل الأمانة ؛ وعبثوا بكافة القيم والأخلاق .

وهكذا انضوى تحت لواء دعوتهم آلاف من الناس

والجماعات والقبائل والناقمين والطامعين وفئات أخرى من الشعب في أجزاء عديدة من العالم العربي والإسلامي . وعندما تسلّم شؤون الدعوة « عبيد الله المهدي » لم يكن مرتاحاً إلى البنية الداخلية للدعوة التي ورثها ، ولا لوجود بعض الدعاة على رأسها ، فأراد إدخال بعض التعديلات ، والمفاهيم الجديدة على الأنظمة . والقوانين القديمة . وإرساء قواعد جديدة تتناسب ورغبات الناس في تلك الفترة الزمنية المعقدة ، ومن جهة أخرى كان عليه إيجاد جو من التفاهم والتعاون بين دعاته هؤلاء المنتشرين في الأقاليم بعد أن تسربت إلى مسامعه أخباراً عن هبوب عواصف الاختلاف والمنازعات في صفوفهم بسبب الفساد والحسد والأنانية والاستغلال وحب الذات . من جهة ثانية أراد عبيد الله وهو الرجل الصارم الذي يأبى أن ترتفع فوق كلمته كلمة أخرى ، أن لا يذهب الدعاة في الأقاليم مذاهب خاصة تفسد الغايات المثلى ، وتعرقل الأهداف النبيلة ، وهكذا وجد دعاة الأقاليم أنفسهم أمام رجل يعرف من أين يؤكل الكتف — قوي المراس — يفوق كل من سبقوه معرفة وخبرة ورجولة ، لا يضعف أمام الشدائد . ولا تلين قناته ، خلق ليكون قائداً وحاكماً ومعلماً . مضافاً إلى كل ذلك صدور بعض التلميحات من جانب المقربين إليه . وكلها

تشير إلى أنه لا بد أن يكون نفسه هو « الإمام المنتظر » الذي بشروا بقرب ظهوره .

هذه الدعوات الجديدة المفاجئة حركت نفوس بعض الدعاة ، وألهبت عواطفهم ، بل أيقظت الرماد الكامن في نفوسهم ، فوقفوا من هذه المفاجآت موقف المعارض الرافض ، وحجتهم في ذلك أنها لا تتفق وما كانوا قد سمعوه وتعلموه من آباء وأجداد عبيد الله الذين يعود إليهم الفضل بتأسيس مبادىء الدعوة ، وإقامة دعائمها ، وقيادة طلائعها - من يوم أن حطوا رحالهم في هذه البلدة « سلمية » ، فكم من مرة أعلنوا على الملأ بأنهم دعاة وليسوا أئمة ، وأنهم من بلاد فارس جاءوا للعمل بالتجارة ، وإرساء قواعد دعوة تقود وتدعو إلى إمام منتظر . . . إذن فأن ما يعلنه عبيد الله عن نفسه لا يتفق وتعاليم أجداده ، كما وأن هذه التغييرات الجديدة للنظم وللتعاليم الأساسية ، وللأفكار التي غرسوها في عقول الناس مدعاة للعجب ، وتقودهم ربما إلى حد الكفر بكل شيء . . . أجل . . . كانت سابقة خطرة بنظرهم فيها ما فيها من الخروج على الواقع الراهن بالإضافة إلى معارضتها كلياً مع كل ما تلقوه من تعاليم وأفكار لحركتهم الثورية الاشتراكية .

وكان عبيد الله بالإضافة إلى كل ما ذكرناه يرى أن

الوقت لم يحن بعد للإعلان عن الثورة . والمباشرة بالزحف . أو حتى القيام بأية مواجهة عسكرية . وكانت المعلومات التي لديه تشير بأن بعض دعاة الأقاليم . وخاصة في العراق قد بدأوا يعدون العدة . وينظمون الصفوف . . . كان يرى أن الثمرة لم تنضج بعد . وأن العقول لم تصل بعد إلى حد الإيمان المطلق بتقبل الأفكار الثورية الجديدة . وإن كل انتصار أو نجاح في هذا المجال مشكوك فيه . ومن جهة أخرى كان يرى أن الدولة العباسية لا تزال تتمتع بقوة كبيرة . وأن باستطاعتها القضاء على أية حركة ثورية تنبعث في جهة من جهات الدولة الكبيرة . فمن هذا المنطلق أصدر تعاليمه بضرورة التريث . والعودة إلى تنظيم الصفوف . وغرس التعاليم في عقول الشباب خاصة . وتهيئة الأجواء بصمت وحذر وسرية وإعداد الأمور للوقت المناسب .

وتبرز في واجهة الأحداث الناحية الأهم . وهي معارضة « عبيد الله » لكل فكرة جديدة تنادي بضرورة إيجاد نوع من الحكم الجمهوري للدولة المرتقبة يقوم على أساس الشورى دون اللجوء إلى الحكم الوراثي . وهذا الحكم يجب أن يستند الى مجلس للشورى ، وآخر للتشريع . وثالث للدفاع ،وتكون مهمات المجالس الثلاث انتخاب رئيس الدولة ومساندته في

الحكم والإدارة . فاعتبر عبيد الله هذا كله هجوماً مباشراً ، أو مؤامرة كبرى تستهدف مقام « الإمامة » مباشرة ، وتهديم جسورها ، واقتلاع جذورها ، أو بلغة أصح دفن مبادئها وصلاحياتها وتحويلها إلى قاعدة دينية مهملة لا شأن لها ، ولا تملك من الصلاحيات والمعنويات إلاّ الاسم .

وهكذا دبّ الخلاف في صفوف الدعوة الواحدة ، وتسرب إليها الخلاف والانشقاق ، وعصفت بأرجائها الرياح المثيرة للكوامن والأحقاد . وبرز على المسرح الحسد والتباغض محل الإلفة والمحبة والوئام . مما جعل ــ عبيد الله ــ يعمد إلى فكرة إجراء بعض التغييرات والإصلاحات في القيادات . ومناصب الدعاة والمسؤولين ، وخاصة في منطقة الخليج العربي وسورية والعراق ، فنتج عن ذلك عصيان الأوامر من قبل الذين تناولهم التغيير فظلوا في مراكزهم ، وأعلنوا عن رفضهم ، وعدم اعترافهم بالأوامر الصادرة إليهم من « سلمية » ولم يكتفوا بذلك . بل اعتبروا ــ عبيد الله ــ عدواً لدعوتهم . وأنه لا بد لهم من التخلص منه مهما كانت النتائج ، وبأي ثمن .

ومهما يكن من أمر فإن القرامطة الذين هم فرع من الإسماعيلية لم يظهروا بمظهرهم القوي إلاّ بعهد عبيد الله

المهدي . وأصل التسمية وقعت في الفترة التي انتسب فيها إليها « حمدان بن الأشعث » المعروف بقرمط . وهذا الانتساب تمّ على يد « الحسين الأهوازي » وهو أحد الدعاة الكبار الأقوياء الذين تعلموا في مدرسة الدعوة في «سلمية»، وبرعوا في أساليب الدعاية . وكانت مهمته الدعائية تنحصر في العراق والكوفة ومناطق الخليج العربي . ومن الواضح أن انتساب حمدان ساعد على نشر الأفكار واستقطاب المؤيدين ، واجتذاب العديد من الناس . بفضل حنكته وبراعته ومكانته في قومه ، وبفضل ما كان يظهره من الورع والتقوى والتقشف وأساليب الإقناع .

أجل . . . لم تمض إلاّ فترة قصيرة على حمدان حتى تمكن من تحقيق نجاحات كبرى . فاتخذ من « كلواذا » وهي محلة في إحدى ضواحي بغداد ، مركزاً لنشر أفكاره ومبادئه . وفي سنة ٢٧٦ هـ وصل إلى مرحلة تنظيم الصفوف . وإعداد الكتائب والفرق العسكرية . وتدريبها على حمل السلاح ، وأساليب القتال . وجعلها في حالة تأهب قصوى . كما أنه بنى أول دار للقيادة في سواد الكوفة وسمّاها « دار الهجرة » فجلب لها الصخور من أمكنة بعيدة . وأحاطها بسور منيع ، وبخندق عميق واسع يملأ بالماء عند اللزوم . بحيث يستحيل

على المهاجمين اجتيازه . وبهذا تبقى الدار في حالة أمان ولا يمكن الوصول إليها . وفي سنة ٢٧٧ هـ لم يبق أحد في تلك الديار إلاّ هاب جانبه . وحسب له حساباً . كما أن تعاليمه تخطت الحدود . وكانت تلاقي الرغبة والقبول ولم تقتصر على العراق . بل تجاوزته إلى مناطق عربية أخرى قريبة وبعيدة على السواء .

وكان لحمدان صهراً يسمّى « عبدان » عرف بسعة علمه وفطنته وفهمه . وخبرته وحذقه . فانتسب إلى الدعوة القرمطية على يد حمدان . ولم يلبث أن اشترك بالمسؤولية . وأخذ يقدم الخدمات . وقد صادفت الدعوة أيضاً على يديه النجاح الباهر حتى أنه أثر بأبي سعيد الجنابي الزعيم البحراني الواسع النفوذ . فانحاز إلى الدعوة الجديدة وأسّس فيما بعد دولة القرامطة في البحرين ، كما أن «عبدان» أثر بالثري الكبير « دندان » وهو من أصفهان . وإليه يعود الفضل بتمويل أكثر الحركات القرمطية بالأموال . ويجب أن لا يسهى عن بالنا انضمام « زكرويه بن مهرويه » وهو من زعماء سواد الكوفة وكان قد وقع تحت تأثير «عبدان» بعد سلسلة من اللقاءات . وهكذا نزل إلى المجال ليساهم بالعمل . ومن الملاحظ أنه أعطي الصلاحيات الكافية مبكراً . ورقي أعلى المراتب . فأصبح

بعد وقت قصير من العناصر البارزة والمسؤول الاول عن قرامطة الشمال الغربي للعراق بالإضافة إلى بادية السماوة والشام ، وقد عرف عن زكرويه بأنه تمكن من نشر الأفكار القرمطية بنجاح خاصة في بلاد الشام ، وبين القبائل العربية القاطنة حوض نهر الفرات كبني عليم ، وبني أسد ، وكلب ، وربيعة ، والعليص ، وغيرهم .

بعد هذه الانتصارات السريعة في مجال الدعاية والاستقطاب التي حققها «زكرويه» ، وجد أنه أجدر بالزعامة من كل هؤلاء الناس ، وداخله الحسد والجشع ، وكان في الوقت نفسه يعلم أنه لا بد له من التضحية للوصول إلى الغاية بالإطاحة بالمناوئين واحداً بعد الآخر ، وهكذا بدأ بتنفيذ ما قرره ، ففي سنة ٢٨٩هـ نفّذ خطته الأولى فتخلص من «حمدان» وبعد ذلك بفترة قصيرة ألحق به « عبدان » أي أنه قتلهما الواحد بعد الآخر ، كما أعلن عن نفسه بأنه القائد الأعلى للحركة القرمطية ، ولكنه وبعد مضي وقت قصير على هذا الإعلان ولأسباب لا تزال غير واضحة اعتزل الناس ، ولجأ إلى أحد الكهوف السرية بعيداً عن أعين الناس ، فتسلّم شؤون الدعوة بعده ولده يحيى الذي وقف حياته ونشاطه على الغزو والفتح وإعداد الجيوش لفتح البلدان والأمصار والتمركز فيها ، فهاجم في

أواخر سنة ٢٨٩ هـ العديد من البلدان السورية ، ثم جاء إلى دمشق فضيّق عليها الحصار ، مما اضطر « طغج بن الأخشيد » حاكمها من قبل الطولونيين إلى الفرار ، ولكن كل هذا لم ينقذه من المصير المحتوم فكمن له جماعة من المحاربين ، واغتالوه على أبواب دمشق ، وهكذا انتقلت الزعامة إلى أخيه الحسين الذي بدأ يكمل ما خططه شقيقه ، ولكن العباسيين لم يقفوا منه موقف المتفرج ، فتمكنوا من قتله سنة ٢٩١ هـ بعد سلسلة من المعارك العنيفة ، وبعد مقتله خرج «زكرويه» من مأواه ، وجرّد حملة عسكرية كانت الغاية منها الانتقام من العباسيين لولديه ، ورد الاعتبار للجيش القرمطي ، ولكن العباسيين أيضاً تمكنوا من قتله سنة ٢٩٤ هـ بعد سلسلة من المعارك الطاحنة .

هذه اللمحة الخاطفة من تاريخ القرامطة ، كان لا بد لنا من عرضها في هذا الكتاب لتبيان الدور الذي لعبه القرامطة في حياة « عبيد الله المهدي » ، ولإظهار العلاقة التي كانت تربط هذه الجماعة بالائمة الإسماعيليين القاطنين «سلمية» . فهؤلاء هم أحد الفروع الكبرى من أتباع المهدي ، وقد انقلبوا عليه فيما بعد كما ذكرنا ، وأجبروه على ترك المشرق والالتحاق بالمغرب . ولعل كل ذلك كان من حظ هذه الأسرة التي

اضطرتها الظروف القاسية إلى مغادرة مواطنها تحت جنح الظلام بعد أن فقدت قواعدها ونفوذها ، ولم يبق لديها إلا الهمة القعساء ، والإرادة القوية التي يمتلكها «عبيد الله المهدي» ، وهي التي انتصرت في نهاية المطاف ، وأقامت قواعد دولته الفاطمية الكبرى .



الدولة العباسية :

كانت الفترة الزمنية التي قضاها «عبيد الله المهدي» في رئاسة الدعوة في «سلمية» من الفترات العسيرة المرهقة الزاخرة بالأحداث والتقلبات والاضطرابات ، تلك الاضطرابات التي لم تكن تهدأ في مكان حتى تهب في آخر ، ولم يكن بإمكان عبيد الله إعادة المياه إلى مجاريها بالرغم مما بذله من محاولات ، ومن جهة أخرى ، فإن الدولة العباسية الكبرى كانت هي أيضاً غارقة في وسط لجات عميقة من الإضطرابات ، تتقاذفها أمواج صاخبة من الأحداث الخطيرة هذا بالإضافة إلى رياح عاتية أخذت تهب من الداخل منذرة بالخراب ، ومهددة بالدمار .

والحقيقة . . . لم يكن يقض مضاجع هذه الدولة ، ويحرم جفون القائمين على أمرها لذة الرقاد ، إلاّ هذه الحركة الثورية الاشتراكية العنيفة المنظمة التي راحت تتغلغل في نفوس الناس

وعامة الشعب ، وفي كل جزء من أجزاء الدولة العباسية حاملة شعار الثورة والدعوة إلى شق عصا الطاعة . وتغيير نظام الحكم القائم . . . والناس كل الناس ، وفي كل فترات التاريخ تعودوا أن ينضموا إلى كل حركة معارضة لنظام الحكم القائم مهما كانت الأسباب والدوافع ، فنصف الناس أعداء لمن يحكم . . . وهذه حكمة ومبدأ اعتنقته الشعوب منذ فجر التاريخ .

أجل . . . لقد كانت الدولة العباسية في ذلك الحين على اتصال وثيق بالحركة المذكورة تتلقى التقارير السرية والبيانات والمعلومات من عمالها في الأقاليم عن وجود قاعدة كبيرة في قلب البلاد تمد هذه الحركة وتمهد معها لانقلاب عام يشمل كل شيء حتى مقام الخلافة . أما مكان القاعدة فظل مجهولاً في بادىء الأمر . لأن التقارير على العموم جاءت مضطربة ومشوشة وخالية من أي توضيح عن أسماء الشخصيات الذين يقومون بقيادة هذه القاعدة الخطيرة . وما هي صفاتهم ومقاصدهم وجنسياتهم . وهذا ما جعل اهتمام العباسيين بالأمر لا يتجاوز حد المراقبة ومضاعفة الترقب والحذر ، وبمعنى أوضح فإن مقام الخلافة العباسية في بغداد لم يكن يمتلك المعلومات الصحيحة عن الائمة الاسماعيليين الذين يمولون

هذه الحركات ويشجعونها ويمدونها بكافة الإمكانيات والمعونات كما أن الأسرة العباسية التي كانت تقيم في «سلمية» في تلك الفترة لم تحرك ساكناً ، أو تذكر أي شيء عن وجود ائمة اسماعيليين في «سلمية» ، وكل ما هنالك فإن المعلومات التي لديها لا تخرج عن كون هؤلاء هم من التجار الإيرانيين ليس إلاّ ، والحقيقة . . . لو أن العباسيين تأكدوا من وجود هذه الأسرة لما تقاعسوا عن إرسال جيوشهم وتدمير «سلمية» على رأسها ، ولكن في عهد «عبيد الله المهدي» تغير الحال ، فالخليفة العباسي « المكتفي » أصبح على علم يقين بأن عبيد الله هو المسؤول الأول عن كل ما حدث ويحدث من الحركات التي تندلع في أرجاء الدولة ، ومن جهة أخرى ، ولأمر لم يفصح عنه التاريخ وقف «المكتفي» موقف العاجز ولم تبدر منه أية مبادرة عاجلة ، ولعلّ المعلومات التي كانت قد وصلت إليه تفيد بأن القرامطة أنفسهم قد انشقوا عن «عبيد الله» ، وأن هذه المجموعة قد انقسمت على نفسها ، وأنها أصبحت تعاني من انقسامات داخلية خطيرة ، وأن القرامطة هم الآن في طريقهم للقضاء على المهدي ودعوته في «سلمية» ، وها هي طلائعهم قد أخذت تقترب من الهدف ، وتصفية الحساب ، ولعل هذا كله جعل الخليفة العباسي «المكتفي» يكتفي بتوزيع الاوامر

الشديدة على العمال والولاة في أقاليم سورية وفلسطين ومصر والمغرب يطلب فيها منهم إلقاء القبض على «عبيد الله المهدي» وكانت المعلومات التي وصلت إليه تشير بأن المهدي يزمع مغادرة البلاد إلى مكان فراراً من جيوش القرامطة التي قررت مداهمته .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الأحداث جاءت مجتمعة في ظرف كانت فيه الدولة العباسية تعاني من حالة داخلية سيئة ،ومن نقمة عامة ظهرت علائمها على وجوه عامة الناس وسببها استفحال الفساد والاستغلال والظلم ، وهيمنة فئة من المستغلين والنفعيين على مقام الخلافة . وأكثرهم من الغرباء أو الموالي الأتراك ، لدرجة أن عزل الخليفة وتوليته وقتله أصبحت بأيديهم ، وكان الفقر المنتشر في الأوساط الشعبية العامة ، وإهمال مطالب العمال والفلاحين والطبقة الفقيرة ، وفقدان العدل والحرية والمساواة ، واحتجاب الخليفة عن أنظار الشعب من الأسباب التي جعلت البلاد تعيش في حالة من الفوضى والاضطراب لدرجة أنها أصبحت بين عشية وضحاها ملهى يتلهى به المتنافسون والمستغلون بينما الخليفة وصل إلى درجة لم يكن أميناً على حياته في حاضرته بل وفي قصره .

إن كل هذا مهّد السبيل لقيام الثورات والانتفاضات ، وساعد على امتداد المد القرمطي ، وقرّب من فجر الدولة الفاطمية ، وبزوغ شمسها في جهة من جهات الأرض . . . وهكذا أصبح المجال واسعاً أمام تلك الدولة الفتية لانتزاع البلدان والأقاليم العباسية ، واحداً بعد الآخر ، ونزع اسم الخليفة من الخطبة في أيام الجمعة من كل أسبوع ، واستبدال اسمه بغيره عن العملات وغير ذلك .



عبيد الله المهدي
نشأته ـ ثقافته

لم يذكر التاريخ إلاّ القليل القليل عن طفولة ونشأة عبيد الله المهدي أو «سعيد الخير» كما كانوا يلقبونه . كما أنه لم يتطرق إلى ذكر على من درس العلم والأدب ، ومن هم الذين تولوا تربيته وتعليمه ؟ ولعلّ الستار الكثيف من السرية الذي كان يغطي على كل شيء يتعلق بحياة هؤلاء «المستورين» هو من الأسباب التي أوجدت هذا التعتيم الكثيف . ولكن عندما نعلم أن «عبيد الله» هو سليل الأسرة التي وضعت سطور أول موسوعة فلسفية عربية ، وأعني بها «رسائل أخوان الصفاء وخلان الوفاء» وعندما نصل إلى معرفة أعماله ، وسياسته وتدابيره إبان اضطلاعه بمسؤولية الحكم بالمغرب . نقول ونحن على جانب كبير من الاطمئنان بأنه كان يمتلك الفكر النير والثقافة العليا ويلم بكافة المعارف والعلوم المعروفة في

عصره وخاصة الأدب ، لأن في تاريخه ما يشير إلى أنه كان يعطف على الأدباء ويقربهم ويصغي للشعراء ويجزل لهم العطاء ويؤيد ذلك ما ورد في تاريخه :

إن « جعفر بن محمد بن أحمد البغدادي » وكان من نوابغ عصره في الكتابة وقرض الشعر ، وكان يعيش في بغداد عندما ساءت العلاقة في أحد الأيام بينه وبين « علي بن عيسى » وزير الخليفة المقتدر العباسي ، ولما عزم الوزير على قتله فرّ إلى القيروان في المغرب ، وتمكن من الدخول على « عبيد الله المهدي » ومدحه بغرر القصائد . فقربه وولاّه أعلى المناصب .

أجل . . . ولد عبيد الله في بيت علم وأدب وثقافة ، وأنه لمن العبث أن نصدق أنه كان غير مثقف من استطاع إرساء قواعد دولة كبرى وحكمها مدة خمسة وعشرين عاماً تلك الدولة التي لم تلبث أن غزت الشرق والغرب ودامت مدة أربت على القرنين والنصف .

ولد عبيد الله في «سلمية» سنة ٢٥٩ ، ومات ودفن في المهدية سنة ٣٢٢ فيكون قد عمّر ثلاثة وستون عاماً ، أما مدة خلافته فخمسة وعشرين عاماً تبدأ من سنة ٢٩٧ وتنتهي سنة ٣٢٢ .

كان فصيح اللسان ، يمتلك قدرة عجيبة على الإقناع ،

مهيب الطلعة ، يؤثر في السامع ، محباً لعمل الخير ، جريئاً بهدوء ، لا يعرف التردد ، مغرماً بالقراءة والتزود من العلم ، واقتناء الكتب وتربية الخيول والصيد . . . وكان كريماً إلى حد كبير .

ذكر جعفر الحاجب وهو الذي رافق المهدي في سيرته : بأن عبيد الله اصطحب معه من «سلمية» مجموعة من الكتب كان يحرص عليها أشد الحرص ، وبينما كان في طريقه إلى المغرب وبالقرب من واحات «برقة طلع» عليهم بعض اللصوص فسلبوا منهم بعض الأشياء ومنها الكتب الآنفة الذكر . وعندما قام الخليفة الفاطمي الثاني «القائم بأمر الله» بغزو مصر عرّج على المكان وضرب نطاقاً حوله . ثم قام بالتحريات اللازمة ، فتمكن أخيراً من العثور على الكتب واستردادها وله في ذلك تصريحاً رائعاً يقول فيه :

« لو أن غزوتنا إلى مصر لم تثمر إلاّ عن هذه الكتب لكان ذلك نصراً » . وقد تنبأ المؤرخون بأن تلك المجموعة هي : « رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء » التي وضعها أحد أجداده وهو « أحمد بن عبد الله » وهناك من يقول غير ذلك . . . والله أعلم .

أبو عبدالله الشيعي
داعية الفاطميين ومقيم دولتهم في المغرب

ضرب الأئمة الإسماعيليين « المستورين » الذين عاشوا في «سلمية» الرقم القياسي باستنباط واختراع أساليب الدعاية ونشر الأفكار والتعاليم ، فتاريخهم طافح بعدد كبير من الانتصارات التي حققوها بسرعة مذهلة ، ومن الواضح أن دعوتهم منذ أن وجدت في «سلمية» لم تتوقف يوماً عن إرسال الدعاة إلى الأقاليم والبلدان لنشر مبادئهم ، واستقطاب المؤيدين والأنصار ، وإقامة المراكز والمكاتب ، ويحدثنا تاريخهم بأنهم منذ أن حطوا الرحال في «سلمية» لم يدخروا وسعاً ، ولم يتقاعسوا عن تنفيذ هذه المهمة الأساسية في بناء دعوتهم ، وقد كانت أولى طلائع تلك الجهود التي لم تكن تستثني المناطق البعيدة ، حملة الداعيين : « الحلواني وأبو سفيان » الذين تم إرسالهما سنة ١٦٠ هـ إلى المغرب الأقصى بمهمة الدعاية للدعوة الإسماعيلية ولتعاليمها

وعقائدها ، وبعدهما أرسل « رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب » المعروف (بمنصور اليمن) ، «وعلي بن الفضل» إلى اليمن ، وهذان الداعيان لهما تاريخ حافل بالبطولات والفتوحات ، ويحدثنا تاريخهما : بأنهما نزلا في بادىء الأمر ببلدة «غليفقة» على ساحل البحر الأحمر ، ثم انتقلا منها إلى « الجَنَد » ، وواصلا بعد ذلك التقدم والزحف رويداً رويداً ، وفي خلال مدة تقرب من العشرة سنوات ، أصبح الجزء الأكبر من اليمن خاضع لهما ولنفوذهما ، ولولا خلاف ذرَّ قرنه أخيراً بين الداعيين لتحولت اليمن بكافة أجزائها إلى الفاطميين ، ولكان «عبيد الله المهدي» أقام دولته فيها ، وتغيّر وجه التاريخ العربي.

وتشاء الأقدار أن يتعرف في موسم الحج الى الداعي الكبير « الحسين الأهوازي » وكان مكلفاً بمهمة دعائية في أوساط الحجاج في الديار المقدسة ، وبعض الأقاليم الخاضعة لحكم الدولة العباسية .

أجل . . . شاءت الأقدار أن يتعرف إلى « الحسن بن أحمد بن زكريا » الذي عرف بالتاريخ فيما بعد « بأبي عبد الله الشيعي » أو «الصنعاني» أو « الصوفي » أو « المعلم » . . . وأبو عبد الله هذا يمني الأصل ، وكان يعيش في بغداد ، ويتولّى وظيفة أعمال الحسبة . فأنس إليه الأهوازي ، وتوسم

فيه خيراً ، بل وجد فيه ضالته المنشودة ، وبعد سلسلة من اللقاءات أقنعه بصواب فكرته ،وبصحة مبادئه،وعرض عليه فكرة الذهاب إلى اليمن ، والالتحاق بالداعي ابن حوشب للعمل معه ، والتمرن على يديه ، فقبل أبو عبد الله المهمة بعد أن اقتنع بصوابها ، ثم التحق بابن حوشب في اليمن ولازمه وعاونه وتعلم منه أساليب الدعاية ، والعمل السياسي ، وبعد مضي فترة قصيرة تمكن من الحصول على ثقته وتقديره مما جعله من المقربين إليه ، بل من المخلصين الذين استحقوا تبوء أعلى المراتب . ولما كان ابن حوشب يعلم بأن منصب رئاسة الدعوة العامة في المغرب أصبح شاغراً بعد وفاة الحلواني وأبو سفيان فإنه عهد إليه بشؤون الدعوة في المغرب وهكذا كان ، فقد ذهب أبو عبد الله بعد أن زوّده منصور بالتوصيات والمعلومات والأموال وكل ما يحتاج إليه وكان وفوده بادىء ذي بدء إلى الديار الحجازية — وفق خطة مرسومة — فأقام فيها فترة وهو يخفي مهمته إلى أن حان وقت وفود الحجاج إلى المدينة ، ففي هذا الوقت بذل نشاطه ، ونفّذ خطته ، فاتصل بحجّاج قبيلة « كتامة » المغربيين ، وتحدث إليهم طويلاً ، ولمرات عديدة ، فأعجبهم علمه وتفكيره وبعد نظره،وكان أن أظهروا له رغبتهم بالذهاب معهم إلى « كتامة »

لقضاء فترة بينهم يتولى في خلالها تعليمهم ما ينقصهم من العلوم والمعارف وقواعد الدين . فأعلن لهم عن تردده مظهراً انشغاله بأمور أخرى . ولكنه أخيراً نزل عند رغبتهم . ووافق على طلبهم . وكان تردده مناورة وخطة أخفى وراءها أغراضه ومراميه ، وهكذا ازداد تعلقهم به يوماً بعد يوم . واجتمعوا على محبته والانضواء تحت إرادته بعد أن رأوا فيه من الورع والتقشف والصدق والرجولة ما لم يروه بغيره من الرجال . أما أبو عبد الله فقد تمكن بما جبل عليه من فهم وذكاء ، وبفترة قصيرة من الإحاطة بكل شيء من أحوال «كتامة» ومشاعرها ورغباتها وآمالها ، فاستغل هذه الإدراكات وجعلها منطلقاً للنفاذ إلى غاياته وأهدافه ؛ وكلها تقضي باشتياقهم لحمل السلاح وشن الحروب ، وافتتاح البلدان ، ومناهضة الملوك والحكام المستبدين الذين يعكرون صفو حياتهم ، ويسيئون معاملتهم ، ويشيعون في أرجاء بلادهم الظلم ، والفساد .

ويذكر التاريخ : إن أبا عبد الله وصل إلى منطقة «كتامة» سنة ٢٨٨ هـ فوجد لدى الناس قابلية واستعداداً لقبول كل ما يبشر به من أفكار ومبادىء ، أو بلغة أصح وجدها صالحة وممهدة من قبل الداعيين «الحلواني وأبو سفيان» بحيث لا تحتاج تلك الأفكار إلا للتنفيذ والتطبيق ، أما رحلته من الديار

الحجازية إلى بلاد «كتامة» في المغرب فيذكرها التاريخ بأنها تمّت وفق خطة رسم خطوطها بعناية فائقة ، فعند وصوله إلى مصر أظهر للكتاميين رغبته بالعودة إلى وطنه وإلغاء الرحلة ، وعندما تقدم لوداعهم ظهرت عليهم علائم الحزن والاسى ، وشق عليهم فراقه ، كما لم يتمالكوا أنفسهم من ذرف الدموع . وفي هذه الدقائق سألوه : إذن لماذا جئت بنا إلى مصر ، وكان بإمكاننا سلوك طريقاً آخر أقرب فقال : إنني بحاجة إلى التزود من العلم ، وهذا ما جعلني مضطراً لذلك ، وهنا أعادوا الكرة عليه ، وألحّوا طالبين منه العودة عن قراره وتنفيذ وعده ، وما زالوا به حتى أجابهم إلى طلبهم ، فاستأنفوا السير ، وما زالوا حتى أصبحوا على مقربة من بلاد كتامة (وهي تقع الآن في بلاد الجزائر) فخرج إلى لقائهم الأهل والأصحاب وعدد كبير من أهل الحل والربط والنفوذ.وفيهم من عرف «الحلواني وأبو سفيان» ولما وقفوا على خبر أبي عبد الله ، وتحدثوا إليه ، أحلوه من أنفسهم ، وأعلنوا له عن سرورهم وتقديرهم وترحيبهم بمقدمه ، راغبين إليه البقاء لمدة طويلة ، وكانوا يتسابقون على إنزاله بضيافتهم ، ويروي التاريخ أنه سألهم : أين « فج الأخيار » ؟

فدلوه عليها . . . فقصدها ، وكانت قرية صغيرة تقع

في جبل « إيكجان » القريب من « قسطنطينة » وهناك وعلى مسمع من الرجال الذين رافقوه قال لهم :

هذه «فج الأخيار» ، وما تسمّت إلاّ بكم ، فلقد جاء في الأخبار أن للمهدي المنتظر هجرة ينبو بها عن الأوطان ، وينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان . . . قوم اسمهم مشتق من الكتمان ، ولخروجهم من هذا الفج سميت فج الأخيار . . . فتنادرت بأقواله القبائل ، وأتته البربر من كل مكان ، وعظم أمره . وما لبث أن كشف لهم عن قصده وعقيدته ، ورسالته التي كلف بإبلاغها إليهم ، فازدادت محبتهم له ، وعظم أمره فيهم وهرعت القبائل إليه طائعة مستسلمة ملبية رغباته ، عارضة خدماتها .

ويزيد التاريخ على ذلك قوله : بأنه اتخذ من «فج الأخيار» داراً له ، ومنطلقاً لتوجيه دعاته . . . والفج كما ذكرنا تقع في نواحي «ايكجان» التي أطلق عليها قديماً اسم « تزاجان » « Tzajjan » وكانت محطة لاجتماع الحجاج العائدين والذاهبين من الأندلس وشمالي المغرب الأقصى .

ومهما يكن من أمر فإن أبا عبد الله رغم تلك الانتصارات البدائية ، وذلك التأييد المطلق الذي حققه في تلك الفترة القصيرة ،

فإن طريقه كان مليئاً بالعثرات ومحوطاً بالمصاعب . . . فهنالك بعض الفقهاء والعلماء ورجال الدين الذين نازعهم الحسد وتسرب إليهم الخوف على مراكزهم ومكانتهم ، هؤلاء هرعوا إلى زرع المصاعب في طريقه ، ووضع العقبات الكأداء، واختلاق الإشاعات ، بعدما تحققوا مما وصل إليه من حب الناس وتقديرهم وولاءهم ، وانصرافهم عنهم ، وفي كل هذا ما يعجل بانتهاء أدوارهم ، ولكن أبو عبد الله تغلب عليهم بما أوتيه من علم وفصاحة ، ووسائل الإقناع ، ومجابهة الأحداث ، وكل هذا شجّع همة الداخلين في طاعته ، فتوافرت جموعهم على تأييده ، والأخذ بناصره وقوي أمره ، واستقام له البربر خاصة ، وعامة « كتامة » .

أجل . . . كانت الثمانية أعوام التي قضاها أبو عبد الله الشيعي ما بين سنة ٢٨٨ هـ إلى سنة ٢٩٦ هـ أعوام جهاد مستمر، ونضال منقطع النظير سلك في خلالها سياسة الحزم والحكمة والقوة إلى جانب اللطف والليونة ، فتمكن من زرع الأفكار ، واكتساب المؤيدين والأنصار بشكل منقطع النظير .

من الواضح أن أبا عبد الله الشيعي اعتمد على البربر وعلى كتامة بشكل خاص وهؤلاء عرفوا بحبهم للقتال وللغزوات ،

والإقدام على المخاطر . وركوب متن الأهوال والصعاب في سبيل الحصول على مقاصدهم . والوصول إلى أهدافهم بالعيش الكريم ، والحياة الأفضل كما أنهم شديدو الخشونة لا يرحمون من يتصدّى لقتالهم أو النيل منهم ، ميالون بطبيعتهم إلى حب السيطرة وافتتاح البلدان . وتوسيع رقعة بلدانهم ونفوذهم ، ناهيك عن نقمتهم على الملوك والأمراء وعلى غطرستهم وظلمهم وابتعادهم عن منهج العدالة . لهذا تمكن أبو عبد الله بواسطتهم من الوصول إلى أغراضه . وتحقيق آماله . فكان يثير حماسهم وحميتهم بكلماته وعباراته مذكراً بأوضاعهم، وبما هم عليه من الفقر والضيق وشظف العيش والحرمان ، بينما طبقة الحكام ينعمون بخيرات الأرض ، ويعيشون حياة البذخ والترف ، وساعد في ذلك أوضاع بلادهم العامة وموقعها الجغرافي في جبال عسيرة جرداء ، وبقاع رملية في سفوحها ، تلال متناثرة خالية مجدبة لا شجر فيها ولا ماء ولا حياة . فهذه الأرض لا يمكن أن تمدهم بما يحتاجون إليه من أمور الحياة ، كما أنها لا تساعدهم على تخطي العقبات . وتجاوز المحن القاسية ولا تصلح لأن تكون حاضرة خاصة . تفيض عليهم بمعين آخر يكفل لهم الاستمرار بالبقاء . والعيش الرغيد ، ومن جهة أخرى فإنها غير صالحة لأن تكون صلة الوصل بغيرها من

الأمم ، أو مكاناً لتلقي المدنيات والحضارات والثقافات – المهم – إذا استثنينا ذلك السهل الضيق الذي يتاخم البحر الأبيض المتوسط ، وجل سكانه من عروق مختلفة . فمنهم الفينيقيين ، والقرطاجانيين ، والإغريق ، والروم ، والعرب ، وفي الواقع لم يكن خروجهم على الولاة وقيام الثورات ، ومعارضتهم للأوضاع ، وتأهبهم للحروب وللفتوحات ، وللغزوات ناتج عن اعتقاد ديني ، أو عن نزعة عنصرية بل كان سببه الظلم ، والتعسف ، والفساد ، والاضطهاد ، ولجم الحريات ، وفرض الضرائب الفادحة المثقلة لكاهلهم ، واستئثار الحكام والأمراء بشؤونهم ومقدراتهم وحياتهم ويضاف إلى ذلك أنهم ومع كل ما كانوا يعانوه لم يجدوا لدى الملوك والحكام من يقدر أوضاعهم أو يعمل على إنصافهم وانتشالهم مما يعانون . فكل هذا عندما نضعه أمام أنظارنا نرى أنه ساعد أبو عبد الله على نجاح مهمته ، ومهد له سبيل الوصول إلى الغاية المرتجاة ، فجعلهم يتسابقون إلى السير وراءه ، واللجوء إلى كنفه معتبرين أن الله أرسله إليهم كمنقذ جاء ليقودهم في طريق الحياة المعبد الصالح ، وليحسن أحوالهم ، وينتشلهم من براثن الفقر والحرمان ويبعد عنهم ظلم الأمراء والحكام ، ويفتح أمامهم الآفاق الواسعة ، ولهذا عاهدوه ومحضوه ثقتهم ،

وتجندوا تحت قيادته ، وانطلقوا أخيراً إلى الفتح وإخضاع المدن والقرى وضمها إلى دولتهم محطمين في ذلك كل أثر للزعامات التقليدية الجائرة .

ففي سنة ٢٩١هـ بدأ أبو عبد الله أعماله الحربية ، فانطلق على رأس جيش كبير من «الكتاميين» كان قد أعده ، وجهّزه بنفسه ميمّماً شطر بلاد «الأغالبة» ومملكتهم الواسعة فوقعت في يده عدة قرى ومدن . وساعده في ذلك موت «إبراهيم بن الأغلب» سنة ٢٩١هـ ثم موت ابنه «أبو العباس» فيما بعد ، وتوليته ابنه الثاني «زيادة الله» وهذا الأخير لم يكن يملك شيئاً من صفات الحكم والقيادة ، بل كان مستهتراً لا يفكر إلاّ باللهو والشراب والترف .

يذكر التاريخ : إن «إبراهيم بن الأغلب» شعر قبل موته بهذه الثورة العارمة تهب في أطراف بلاده ، ثم تمتد بسرعة هائلة إلى الأرجاء لتحرق بلهيبها بلدانه وممتلكاته . . .

أجل شعر بذلك وفكّر طويلاً ولكنه في النهاية حكم بأنه لا بد له من اتخاذ الخطوات الجريئة ، ولا يتم ذلك إلاّ بالقضاء على الرأس المدبر للحركة ، وهذا الرأس هو «أبو عبد الله الشيعي» فبذل جهوداً في بادىء الأمر في سبيل اجتذابه واستقطابه دون

قتال ، عارضاً عليه المناصب والمراتب ، باذلاً شتى المغريات ، ولكن أبا عبد الله لم يكترث بعروضه ، وردّ عليه بكتاب يدل على الجرأة والاستصغار ، مما دعاه وحركه أخيراً إلى إرسال حملة لمحاربته ، ولكن أبو عبد الله صمد لها وتغلب في النهاية عليها وأوقع بها شرّ هزيمة ، فعاد إبراهيم بعد مضي عدة شهور وجهّز حملة ثانية ولكنها لم تلبث أن منيت بالهزيمة كسابقتها .

بعد هذه الانتصارات الحاسمة التي وقعت ما بين سنة ٢٩٦ هـ إلى سنة ٢٩٧ هـ فكر أبو عبد الله بأن عليه بادىء ذي بدء إزالة دولة الأغالبة كلياً ، واحتلال الرقعة الواسعة التي تحكمها في المغرب الأوسط ، وتعتبر هذه الخطوة المرحلة الأولى بالنسبة لآماله المرسومة ، وفي الواقع تم تنفيذ ذلك على مراحل بعد سلسلة من المعارك والحروب ، ففي سنة ٢٩٦ هـ دخل أبو عبد الله مدينة « رقّادة » جنوبي « القيروان » واستقرّ في دار الإمارة وفيها جمع كل ما كان للأغالبة من مال وسلاح وعتاد ، فوزعه على الجند ، ثم أمر الخطباء وأئمة المساجد إعلان الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المهدي ، وإبطال اسم الخليفة العباسي ، كما أمر بسك العملات باسمه ، ومن « رقّادة » واصل الزحف إلى مدينة « القيروان » ، وكان فيها « زيادة الله

ابن الأغلب » فلما تحقق أن لا قدرة له على التصدي للزحف الكبير شرع بإعداد عدة الحرب . وحمل كل ما خفّ وزنه ، وغلا ثمنه ، ثم ركب فرسه ، وتقلّد سيفه ووقف يتأمل الناس وهي تهرع بالفرار . وهنا أخذت جارية من جواريه عوداً ووضعته على صدرها وغنته لتحركه على أخذها معه . . . فقالت :

لم أنسَ يوم الوداع موقفها
وجفنهــا في دموعها غرقُ
وقولهــــا والركاب سائرة
تتركنا سيــدي وتنطلــقُ
أستودع الله ظبيــــة جزعت
للبين والبــين فيه لي حرقُ

فدمعت عيناه ، وشغله الموقف الحرج عن أخذها معه ، وخرج من «القيروان» مع رجاله وعبيده ولحق بمدينة «طرابلس» وهو يبكي ملكاً أضاعه ، ولم يحسن الحفاظ عليه .

ومهما يكن من أمر فإنه بعد أن تمّ لأبي عبد الله احتلال بلاد دولة الأغالبة في تونس . هذه الدولة التي دام حكمهم لها من سنة ١٨٤ هـ حتى ٢٩٦ هـ . . .

أجل . . . بعد أن تمّ له ذلك أقام عليها أخاه أبو العباس وخرج إلى المغرب الأقصى وكانت جميع المدن الواقعة بين « سجلماسة » بالمغرب الأقصى ، والمغرب الأوسط قد خضعت له وأظهرت له تأييدها وطاعتها ، وبعبارة أوضح اهتزّ له المغرب بكافة أجزائه وخافته « زناته » ودانت له القبائل التي أعلنت العصيان في بادىء الأمر ، وأتته رسلها للدخول في طاعته ، والسير في ركابه ؛ وهذا ما جعله يفكر من جديد بالقضاء على دولة بني مدرار ، وبذلك يكون قد حقق القسم الأكبر من أحلامه بضم المغرب الأقصى إليه ، مضافاً إلى كل ذلك أن ما يفعله لم يكن ليثنيه عن التطلع إلى « تاهرت » وملك بني رستم ، وهذا يأتي بالمرحلة الثانية ، فأمر جيوشه بالزحف وعدم التوقف ، وكان الفضل في هذا الزحف السريع والانتصار الحاسم إلى الدعاة الذين كان يرسلهم باستمرار إلى الأقاليم المرشحة للغزو ، للدعاية والتمهيد ، وكانوا يقومون بمهماتهم بتأليب الشعب على الحكام المستهترين الذين اتخذوا من اللهو والشراب سلوى لحياتهم وإشباع رغباتهم تاركين الأمور على غاربها ، لا يعلمون ماذا يجري في بلدانهم ، ولا بما يتآمر به عليهم وزراءهم ، وأكثرهم كان يتسابق إلى الاتصال بأبي عبد الله ، وإعلان الولاء له حتى ينقذ نفسه ، ويؤمن النجاة .

وهكذا فإن أبا عبد الله أصبح بين عشية وضحاها صاحب السلطة المطلقة في المغرب الأقصى والأوسط ، فبعد أن تمكن من إزالة دولة الأغالبة وبني مدرار وبني رستم رسم لنفسه سياسة القائد الحكيم الذي أرسله الله لإقرار مبادىء العدل ، وتوطيد دعائمه بين الناس عن طريق القوة أحياناً واللين غالباً . فأظهر ولعه وحبه للشعب وعطفه على مطالبهم وخاصة طبقة الفقراء ، كما منع الظلم والإرهاب ، وأعلن عن تدابير عاجلة لتوفير الأمن والرخاء والمساواة بين جميع طبقات الشعب . ويتجلّى بعد نظره هذا في حديثه مع أخيه أبي العباس وهذا مما قرّب محبته إلى القلوب ، وأدنى احترامه من جمع طبقات الشعب ،فقد ذكر التاريخ : أن أبا العباس طالبه باستعمال القوة والإكراه مع الناس الذين أبوا الدخول في المذهب الشيعي الفاطمي في المقاطعة التي يحكمها فمنعه بقوله :

أحذرك من ذلك ، فدولتنا دولة حجة وبيان وحرية رأي ، وليست دولة قهر واستطالة وعنف وإكراه ، فاترك الناس على مذاهبهم ولا تعمد إلى تنفيذ أي عمل من هذا النوع بالقوة .

وعندما استولى على مدينة « طبنة » سنة ٢٩٣هـ أتاه والي المدينة مع بعض عمّال الجباية ، فقدموا إليه الأموال التي جمعوها من الأهلين فقال للوالي :

من أين جمعت هذا المال ؟ فأجاب :

من العشور . . . فقال أبو عبد الله :

إنما العشور حبوب ، وهذا عين . . . ثم قال لقوم من ثقاة «طبنة» :

اذهبوا بهذا المال فليرد على كل رجل ما أخذ منه ، واعلموا أننا أمناء على ما يخرج الله من أرضكم ، وسنة العشور معروفة في أخذه وتفرقته على ما ينصه الله في كتابه العزيز . . . ثم قال لآخر :

من أين هذا المال الذي بيدك ؟ فقال :

جبيته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضى . فقال له :

وكيف أخذته عيناً ؟ وإنما رسول الله كان يأخذ من ا لملي ثمانية وأربعين درهماً ، ومن المتوسط أربعة وعشرين ، ومن الفقير اثني عشر . . . فقال له :

أخذت العين عن الدراهم بالمصرف الذي كان يأخذه عمر رحمه الله . . . فقال أبو عبد الله :

هذا مال طيب . ثم أمر أحد أتباعه بأن يفرقه على أصحابه.. وقال لمن أتاه بمال الخراج :

هذا مال لا خير فيه ولا فئ ، ولا خراج على المسلمين في أموالهم،ثم أمر ثقاة «طبنة» برده على أهله ، وقبض مال الصدقة من الإبل والبقر والغنم ، ثم بيعت وجمعت أثمانها .

فلما نظر أهل «طبنة» إلى ما فعله.تقدموا منه ، وأعلنوا ولاءهم وباركوه وانتشر خبر أقواله في كافة نواحي المغرب ، فتاقت النفوس إليه . وكاتبه الناس ورغبوا في الدخول في طاعته .

إن تاريخ أبو عبد الله الشيعي يعتبر المدخل إلى تاريخ الدولةالفاطمية في المغرب فأبو عبد الله بحق هو مرسي قواعدها. وموجد عظمتها ، ومقيم بنيانها ، وإليه يرجع أمر تدبير أمورها في بداية عهدها ، وقيادة جيوشها ، وتعليم فتيانها وشبابها كيف يحملون السيوف ويحطمون العروش والتيجان .

ولكن قاتل الله السياسة ، وحب الرئاسة . . . قاتل الله الغرور الذي يتحكم في رؤوس الرجال ، فيغير مجرى حياتهم ، ويؤدي بهم في النهاية إلى الموت والهلاك .

إن فتوحات أبو عبد الله في أفريقيا الشمالية ستظل تشغل عدداً من الصفحات في التاريخ العربي . . . هذه الفتوحات

التي لم تتوقف حتى بعد وصول «عبيد الله المهدي» إلى المغرب ، ولكن الأقدار تأبى ألاّ ان تغير مسيرة التاريخ كما تأبى ألاّ ان تعكّر صفو حياة الرجال الذين في حياتهم لمحات من المثل العليا ، والأهداف السامية .

أجل . . . حدث ما لم يكن في الحسبان . . . فبعد إقامة الدولة الفاطمية والمناداة بالمهدي خليفة للمسلمين في افريقيا الشمالية . .ان قتل هذا الخليفة قائده المظفّر أبا عبد الله وأخاه أبا العباس وأعوانهما . . . فهل شعر أنهم يعدون العدة للاطاحة به ، فتغداهم قبل أن يتعشوه ، أم أن الأمور أسيء فهمها ؟ . . هـــذا ما سوف نتحدث عنه بإسهاب في الصفحـــات الآتية ومهما يكن من أمر فقد تمّ القتل في قرية قريبة من «القيروان» وهكذا أسدل الستار على تلك الشخصية الفذة التي كتبت في تاريخ المغرب انقى الصفحات .

يذكر التاريخ : إن الخليفة «عبيد الله المهدي» انتابه حزن شديد ، وظلّ في قصره عدة أيام معتزلاً الناس ، وقد أقام مأتماً حافلاً لأبي عبد الله اشتركت فيه وفود عديدة وفدت من جميع البلدان ، وأمر بدفنه في مدفن خاص في مدينة «القيروان» ، وذُكر أنه سار في طليعة المشيعين ، وأنه وقف على قبره منتحباً ثم صلّى عليه وقال :

« رحمك الله يا أبا عبد الله وغفر لك » .

إن سيرة الرجل الكبير ومصيره ونهايته ليس لها شبيهاً في التاريخ إلاّ سيرة القائد العباسي « أبو مسلم الخرساني » . وبالفعل كم هو مؤسف غياب هكذا رجال عن مسرح الحياة بسبب خطيئة أو نزوة أو سوء ظن بعدما يكونوا قد ضربوا المثل الأعلى بالجرأة والإقدام وقيادة الجيوش . وتأسيس الدول والممالك .

إننا ونحن نختتم حديثنا عن القائد العظيم أبو عبد الله الشيعي لا بد لنا أن نتساءل عن الأسباب التي حدت بالمهدي إلى قتله . والتخلص منه بهذه السرعة ؟ إذ ليس في التاريخ ما يروي الغليل عن هذه القضية المهمة المعقدة في تاريخ الفاطميين . وكل ما ورد في هذا الشأن لا يمكن أخذه بعين الاعتبار والتصديق . وهنا لا بد لنا من إطلاق عنان الاستنتاجات التي قد يكون على ضوئها بعض لمحات الحقيقة ، فأبو عبد الله الشيعي بعد أن وصل إلى المرتبة العليا في دولته الفتيّة هاله أن تنخفض هذه المرتبة بين عشية وضحاها بعد وصول المهدي وتسلمه شؤون الدولة . كما هاله إهمال أرائه . وعدم الأخذ بنصائحه في بعض الأحيان ، ونبذ كل ما يبدر منه رغم أنها تهدف خدمة

مصالح الدولة ، ويجب في هذا الوقت أن لا يغرب عن بالنا بأن المهدي من جهة اخرى شعر بأن أبا عبدالله بدأ يتغيّر ويتحول إلى رجل متبرم ناقم ينظر إلى الأشياء نظرة تختلف عن ذي قبل، ولعل في داخله أصبح الندم يتفاعل اسفاً على الأيام التي قضاها في خدمة الدولة والجهود والتضحيات لأجل المهدي التي ذهبت أدراج الرياح . ويجب أن نضع أمامنا محبة الناس لأبي عبد الله وامتلاكه قلوبهم ، فهؤلاء لا يمكن أن يخلدوا إلى الراحة إذا تعرض إلى أي عارض أو انتابه أي ضرر ، وهذا ما جعله غير خائف من النتائج، فأي تدبير يتخذه المهدي بإبعاده أو التخلص منه سيكلف المهدي غالياً أو ربما أدى بالدولة إلى الانهيار، ثم وكيف يستطيع المهدي أن يضطلع بأعباء الملك في بلاد يجهل أرضها وطبيعة أحوالها وسكانها وعاداتهم وتقاليدهم . . . ولكن خاب ظن أبو عبد الله فالمهدي من الرجال الذين لا يمكن الوقوف بوجههم، أو التغلب عليهم ، كما أن الناس الذين كانوا للأمس القريب بجانب أبو عبد الله بدأوا يميلون إليه ويستدرون عطفه بعد أن رأوه قد أصبح على سدة الخلافة ، كما أنهم بدأوا يوغرون صدره على قائده — فالناس كل الناس تعودوا أن يتبعوا هذا الطريق . . . إنهم يطربون حينما ينفخوا في بوق الفرقة ، ويسعدون لتحريك الرماد ، وإثارة الكوامن .

كان بعض هؤلاء يأتي إلى المهدي فيؤلبه وينقل إليه الأخبار الكاذبة عن قائده الأمين ، وفي الظلام يتسللون إلى مقر أبو عبد الله حاملين إليه عبارات النصيحة وضرورة الاحتراز والتيقظ لأن المهدي يخطط لقتله أو إبعاده . ويدخل في غمرة هذا الصراع «أبو العباس» شقيق أبو عبد الله،وكان معروفاً بالحمق والطيش والحسد ، فوقف موقفاً فيه ما فيه من القسوة وهذا يعتبره البعض السبب الأول بمقتل شقيقه .

ومهما يكن من أمر ، فإن مقتل أبو عبد الله وضع المهدي وهو في بداية حكمه أمام تجربة قاسية . فقد كان عليه أن يكون أكثر تسامحاً مع رجل أخلص له ، وضحّى في سبيله . فيكتفي بإبعاده أو سجنه مدة الزمن .

هناك مصدر تاريخي يؤكد: بأن «عبيد الله المهدي» أرسل «عروبة بن يوسف» الكتامي على رأس قوة من الجند ، وأوصاه أن يقبض على أبي عبد الله وشقيقه ويأتي بهما إلى سجن خاص أعده لهما ، ولكن القائد المذكور وكانت بينه وبين أبو العباس عداوة قديمة أغاظ له القول ، مما دفع أبو العباس إلى الدخول معه في معركة تمكن فيها القائد الكتامي من الانتصار وقتل اباالعباس، وهنا لم يتمالك أبو عبدالله نفسه وهو

يرى أخاه مجندلاً على الأرض ، فامتشق حسامه ، ولكن القائد المذكور عاجله بطعنة أردته قتيلاً .

هذه القصة تبدو وكأنها صحيحة بدليل أن المهدي ظلّ مدة معتكفاً في قصره لا يقابل أحداً حزناً على أبي عبد الله ، وإن خروجه للصلاة عليه وانتحابه وحزنه يعطيان الدليل بأن قتل أبا عبد الله لم يكن بأمره ، وهناك دليل آخر يؤيد هذا القول وهو : أن المهدي أمر فيما بعد بقتل « عروبة بن يوسف الكتامي » والأرجح أن ذلك القتل كان ثأراً لأبي عبد الله .

صحيح . . . ان التاريخ وضع لطخة سوداء في سجل الدولة الفاطمية بعد مقتل أبو عبد الله الشيعي ، ولكن هذا التاريخ يعود فيذكر : بأن الملك أي ملك لا بد له من دماء وتضحيات ، وعلى كل من يتصدى لتسنمه أن يمتلك الإرادة القوية وعدم التسامح ، والسهر ، والانتقام السريع لكل من يتجرأ على اقتحام حرم الدولة .

ونختم كلمتنا بالقول :

رحم الله أبا عبد الله الشيعي ، فقد كان من عظماء الرجال الذين انتهت حياتهم بمأساة تدمي القلوب .

رحلة المهدي العجيبة

مخطط ماهر . وعبقري فذ . وقائد مظفر ، متين الأعصاب . سليل أسرة عربية كريمة يصحو من رقاده ذات يوم على همسات الأصدقاء والمخبرين الثقاة العارفين بالأمور وكلهم هرعوا إليه وفي جعبتهم ما يثير الخواطر ، ويهز المشاعر . . . جاءوا منذرين ناصحين مطالبين قائدهم بإلحاح وبسرعة مغادرة مقره «سلمية» إلى مكان أكثر راحة وأمناً، وذلك قبل أن تحل الكارثة . ويقع فريسة بين أيدي الأعداء .

فماذا على القائد الكبير — المهدي — أن يفعل وهو يرى أن ما جاء به الإخوان المخلصين هو الحق والصدق . ويقلب المهدي شتات الأفكار . ويضع أمامه كافة الاحتمالات . وأخيراً يخرج بنتيجة تقضي عليه بالانصياع لطلب مستشاريه ورجال دعوته الخلصاء . . . أجل . . . انه أمام الحقيقة وجهاً إلى وجه . فها أن القرامطة قد اتخذوا كافة الإجراءات

للانقضاض عليه في وقت كان لا يملك من القوى والفعاليات ما يكفل له الوقوف بوجههم ومجابهتهم وردعهم . . . هذا من جهة ومن جهة أخرى فتبرز إلى الساحة دولة كبرى يمتد نفوذها شرقاً وغرباً . ويرفرف علمها على بقاع شتى عامرة من الوطن العربي والإسلامي . . . فهذه الدولة وأعني بها « العباسية » قد اعتبرته العدو الأول . والمتآمر الأكبر . والعامل الرئيسي الذي يعمل لقلب نظامها ، والإطاحة بخليفتها ؛ وكان أن حكمت عليه بالإعدام . . . إذن ماذا عليه أن يفعل بعد كل هذا في دنيا سدّت أبوابها في وجهه . وفي مجتمع أغلق قلبه دونه . . . فهذه الدنيا على رحبها ضاقت عليه بل ضنّت بفسحة صغيرة يلجأ إليها ؟ وما دام الأمر كما هو . فإلى أين يذهب وكيف يغادر مسقط رأسه ، وإلى من يوكل أمر أهله وقومه ؟ وها أن الثغور والطرقات والمعابر والموانىء والمحطات أصبحت ملغومة بالعيون والأرصاد ، وكلها تترقب حركاته وسكناته ، فتفحص كل عابر ، وتدقق بهوية كل مسافر ، وغرضها القبض عليه ونيل المكافأة والحظوة .

ويخطر في باله وهو في خضم الأحداث الذهاب إلى اليمن ، ولكن الأحوال في اليمن لا تبشر بما يفعم الخاطر بالأمل . . . أما افريقيا التي أخذت تتطلع إليه وتناديه . . . افريقيا المغرب

وفيها داعيه المخلص «أبو عبد الله الشيعي» الذي ما انقطع عن الكتابة إليه . ومناداته بالحضور . والتخلص من المنشقين الذين يتربصون به الدوائر . ولم ينس أبو عبد الله أن يرسل إليه الأموال والتحف والهدايا ليستعين بها أثناء الرحلة . . . ولكن كيف يمكنه الوصول إلى المغرب . واختراق الطوق المحكم الذي فرض عليه . وهذه الأبعاد الشاسعة المليئة بالعثرات والأخطار والآفات . كيف سيتمكن من اجتيازها ؟

خواطر مزعجة . وأفكار سوداء . وهواجس كالحة دارت في رأس عبيد الله ولكن هل استطاعت تلك الهواجس أن تلين من قناته . أو تجبره على الاستسلام . أليس هو الرجل الذي لم يهن يوماً من الأيام أمام المفاجئات . أو يستسلم إلى الأحداث مهما بلغت من العنف . أو يطأطأ الرأس أمام الخطوب . أو يتنازل عن كبريائه وعزته ؟. . . كلاّ لم يهن عبيد الله . ولم يبدو عليه أي اضطراب وهو يستمع إلى مستشاريه بل وقف برباطة جأش وقوة أعصاب يناقش الأمور والاحتمالات وفي نهاية المطاف يتخذ قراره الأخير بالرحيل . ولكن كل هذا ظلّ سراً عن كل الناس . أما ساعة التنفيذ فتركت أيضاً للوقت المقرر . وكل هذا لم يمنعه من اطلاع البعض على الخطة . وانتقاء رفقاء الرحلة العجيبة الشاقة .

أجل . . . علم عبيد الله المهدي وهو في «سلمية» بما بيّته له القرامطة وأدرك من جهة أخرى ما أعده له العباسيون . إذن فهو الآن بين فكي عدوين مفترسين يتسابقان على التهامه . وهكذا لم يعد جائزاً البقاء في هذا الوطن . وكانت الأخبار التي تتناقلها الناس قد أخذت تعم الأرجاء عن جيش القرامطة الزاحف وعلى رأسه «يحيى بن زكرويه» المعروف بأبي الشامة أو بأبي مهزول . وهذا القائد القرمطي قد رفع أعلام الثورة ، وقرر احتلال القرى والمدن الآمنة . ونشر الرعب والهلع في كل أرجاء الدولة العباسية . وكل هذا عجّل بذهاب المهدي تحت جنح الظلام إلى مدينة «حماه» ، وكان يرافقه ولي العهد «القائم بأمر الله» وزوجته «أم حبيبة» وابنتاه ، وابنه الصغير ، وبعض الخدم . وخادمه المخلص جعفر الحاجب . ويذكر التاريخ :

أنه أخـــذ معه كل مـــا خفّ حمله . وغلا ثمنه من المجوهرات والأموال . أما الأموال الأخرى التي لم يستطع حملها ، فقد حفر لها حفرة في صحن داره إلى جانب بحرة الماء التي كانت تظللها شجرة من أشجار النخيل ، ودفنها دون أن يطلع عليها أحد .

ومن حماه «انتقل» إلى قرية «سلحب» التي تبعد خمسة وعشرين كيلومتراً عن حماه إلى الجهة الغربية ، فبقي فيها

ليلة بضيافة أحد أتباعه المشرف على تربية خيوله العربية الأصيلة ، وهناك مصدر آخر يذكر أنه ذهب إلى قرية « طيبة الإمام » الواقعة إلى الشمال من «حماه» على بعد خمسة عشر ميلاً : وهذه القرية من ممتلكاته وكان جده قد اشتراها من مالكها ولهذا سميت باسمه ، وكانت مركزاً هاماً لتربية الخيول والمواشي . فمن هذه القرية أخذ ما يلزمه من الخيول لسفرته الطويلة الشاقة . وتوجه باتجاه الشام فكان يسير في الليالي . ويستريح في النهار . ومن ضواحي الشام قصد«حوران» ثم «الأردن» «فنابلس»دون توقف حتى وصل أخيراً إلى «الرملة» وهي تقع إلى الشمال الشرقي من القدس . وكان للمهدي فيها داعياً مخلصاً يسمى «أبو الكوثر» فنزل في ضيافته وهو يخفي شخصيته عن كل الناس إلاّ عن صديقه صاحب المنزل وكان على جانب كبير من النفوذ والجاه والمكانة في البلدة . مضافاً إلى المرونة والفهم والخبرة . فنصح المهدي بالتريث وعدم متابعة السفر إلاّ بعد التحقق من خلو الطريق من عيون العباسيين وعملاءهم الذين انبثوا في كل مكان يراقبون الطرقات والممرات وكافة الأماكن التي يمكن أن يسلكها المهدي في رحلته . . . وهكذا أقام المهدي في الرملة ينتظر الأحداث والأخبار .

ويتلهف لسماع ما جرى في بلده «سلمية» بعد أن غادرها ؟ ..
أجل كان يعتقد بأن القرامطة مهما بلغ بهم الجنون والحقد فلا يتجرأون على مداهمة المدينة التي نهلوا منها ينابيع معرفتهم وأفكارهم ، ولا على الأسرة التي وجهتهم ووضحت لهم سبل الحياة وضحت في سبيلهم بكل غال ونفيس ، ولكن الأمور والأحداث جاءت على غير ما تصوره، فإن «يحيى بن زكرويه» ما كاد يصل إلى «سلمية» بعد أن فرغ من تدمير «المعرة» و«حماه» حتى فرض عليها حصاراً شديداً، وكان يظن أن المهدي لا يزال فيها ، فامتنعت المدينة عليه بادىء ذي بدء ولكنه عاد فهادن أهلها، وأخيراً أقنعهم بأنه ما جاء محارباً ولا غازياً، وإنما جاء مسالماً موادعاً يريد الاجتماع بالمهدي ، وتصفية بعض الخلافات معه ، تمهيداً لإعادة الأمور إلى مجاريها وحالتها الطبيعية كما أنه أعطاهم العهد والأمان . ففتحوا له الأبواب بعد أن وثقوا بأقواله ، وعندما تم له دخول المدينة أعمل السيف في رقاب أهلها . ومنع أحداً من الخروج من الأبواب . ويذكر التاريخ أنه قتل جميع سكانها دونما استثناء ، ولم يسلم حتى صبية الكتاتيب . كما أنه أمر الجند بقتل الحيوانات الأليفة . والطيور الأهلية . وقبل هذا كله كان عليه أن يصفي حسابه مع المهدي : فجاء إلى قصره الذي كان يقع في

الجهة الجنوبية على مقربة من القلعة قريباً من المسجد الكبير «ذو المحاريب السبعة» ، فأخرج كافة الأفراد من عائلة المهدي إلى الساحة العامة للقصر ، وأمر أحد السيّافين فتولّى قطع رؤوسهم الواحد بعد الآخر . ورمى جثثهم في أحد الآبار . ويؤكد التاريخ أيضاً أن عددهم بلغ ٨٣ بين رجل وامرأة وطفل ، وبعد هذا انتقل إلى قصر العباسيين وكان يقع في الجهة الشمالية للمدينة . وهذا القصر كانت تستوطنه منذ القرن الثاني للهجرة أسرة عباسية ، فقد جاء إلى «سلمية» : «عبد الله ابن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس» نجل الصحابي المشهور ومستشار الإمام علي «عبد الله بن عباس» وكان والد عبد الله الثاني المذكور عاملاً على قنسرين وحمص ودمشق من قبل العباسيين ، فنزل في «سلمية» وأجرى إليها الأنهر . وامتلك الأراضي والبساتين ... والمعلوم أن هذه الأسرة كانت تتمتع بثقة الخلفاء العباسيين في بغداد . حتى أن الخليفة المهدي زارها سنة ١٦٣ هـ وكان في طريقه إلى القدس ، ثم أنه جعله فيما بعد عاملاً في أحد الأقاليم العراقية بعد أن زوجه أخته . ومن هذه الاسرة «جعفر بن علي الهاشمي» صديق الشاعر عبد السلام بن رغبان «ديك الجن» .

أجل ... «جاء يحيى بن زكرويه» إلى قصر هذه الأسرة في «سلمية» وقتل كل من كان فيه . وقيل ان عددهم ٥٧ كما استولى على كافة محتوياته .

ولكن هل شفى كل هذا غليل القرامطة وقائدهم يحيى؟ في الحقيقة كانت رغبة يحيى تكمن بقتل عبيد الله المهدي وحده. ولكنه لم يجده، وهذا ما جعله يشعر بالخيبة فنزع إلى الحيلة وهو يظن أنها تحقق رغباته وتوصله إلى غايته، فكتب كتاباً إلى المهدي وأمر أحد رجاله بالذهاب إلى «الرملة» أو إلى أي مكان آخر يكون المهدي قد وصل إليه، فيسلمه الرسالة، ويؤكد له بأنه ما جاء إلى «سلمية» إلا للاجتماع به ولمبايعته بالزعامة والقيادة. وإن الناس الآن بانتظاره على أحر من الجمر على أبواب «سلمية».

وصل الرسول إلى «الرملة»، وبعد جهود مضنية تمكن من الاهتداء إلى مقر عبيد الله. فدخل عليه وسلّمه الرسالة. وكانت الأخبار الموثوقة وصلت إلى المهدي صحيحة مفصلة عن الهجوم الذي تعرضت له «سلمية»: وعن إبادة أسرته. وفي تلك اللحظات العنيفة تتجلّى عظمة المهدي. ومتانة أعصابه، فلم تظهر عليه أية دلائل تشير إلى أنه قد سمع بالأخبار بل كان استقباله للرسول عادياً وحاراً. فتسلم منه الرسالة وبعد قراءتها أعلن له عن موافقته على العودة بعد خمسة أيام بعد أن تكون زوجته قد استعادت صحتها ثم حمله رسالة إلى «أبي مهزول» يخبره فيها بما عزم عليه.

بعد ذهاب الرسول أدرك عبيد الله بأن بقاءه في الرملة لم يعد مفيداً . فقد يجرّ عليه هذا البقاء كارثة أشد وأدهى . وبالرغم من عيون العباسيين المنبثة في كل مكان فإنه قرر السفر . وهكذا كان . فغادر الرملة تحت جنح الظلام باتجاه الأراضي المصرية عبر «غزة» والواحات الصحراوية . وكان يرتدي ثياب التجار الإيرانيين . وهكذا أفراد عائلته . وفي الأراضي المصرية لم يجد ما كان يخشى منه بل على العكس وجد في كل مكان عبره الترحيب والإكرام على اعتباره رجلاً أعجمياً غريباً يقوم برحلة تجارية . ولكن هذا لم يحل دون القبض عليه وهو في موقع «الوجه البحري» من قبل الجيش العباسي ، وكان قد اجتمع إليه في ذلك المكان أحد دعاته الأقوياء المكلف بشؤون مصر وهو : (محمد بن علي ابن محمود «المقيم») وإليه يعود الفضل بتسهيل مهمته وإيصاله فيما بعد حتى حدود برقة .

أجل . . . جاء الجند بعبيد الله إلى مقر القائد الأعلى أو الحاكم العسكري لمصر من قبل العباسيين في ذلك الوقت وكان هو : «محمد بن سليمان» الذي انتدبه الخليفة المكتفي لطرد آخر ولاة الطولونيين في مصر ، وبالفعل تمكن هذا القائد من تنفيذ مهمته بفترة قصيرة . وبعد ذلك مددت إقامته في مصر

لفترة قصيرة معينة ، وخلال تلك الفترة وصل المهدي إلى مصر ، وعندما جاء به الجند إليه طلب المهدي الاجتماع إليه على انفراد،وبعد خلوة قصيرة خرج «محمد بن سليمان» ليعلن للناس بأنه ليس هو المهدي المطلوب ، وأمر الجند بمرافقته والحفاظ عليه حتى «برقة» .

بعض المصادر ذكرت بأن الذي قبض عليه هو « عيسى النوشري » عامل العباسيين على مصر ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، لأن المصادر المذكورة عادت وذكرت بأن « محمد بن سليمان » بعد أن عاد إلى بغداد قبض عليه الخليفة العباسي المكتفي وقتله بعد ثبوت تهمة الرشوة وقبض الأموال من المهدي لقاء إطلاق سراحه ، وهناك وهذا احتمال ضعيف من يقول بأن « محمد بن سليمان » كان من أتباع المهدي المعتنقين لمبادئه ومذهبه .

بعد وصول المهدي إلى نواحي «برقة» تقدم عبر الصحراء والواحات في المغرب الأدنى وهو : « ليبيا اليوم » سالكاً طرق القوافل التجارية . وما زال يسير من مكان إلى آخر متحملاً الحر والمشاق وخشونة قطاع الطرق واللصوص والحراس ، وكان يعرض عليهم الهبات والأموال ويستخدمهم في قضاء بعض الحاجات الضرورية حتى اجتاز أخيراً مراحل

الخطر وعندما أصبح على مقربة من طرابلس علم به « زيادة الله بن الأغلب » ولكنه غضّ الطرف عنه رغم ما لديه من أوامر عباسية بالقبض عليه ، ويقال أنه لم يتأكد من شخصيته تمام التأكيد بينما يذكر آخرون : بأن المهدي أهداه بعض القطع من الجواهر الثمينة . ومن هناك تابع سيره مجتازاً أطراف المغرب الأوسط (تونس) عبر الواحات والصحراء والتلال . وبدلاً من أن يتوجه إلى المنطقة التي استولى عليها قائده « أبو عبد الله الشيعي » توغل في أراضي المغرب الأقصى على حدود الصحراء حتى وصل إلى « سجلماسة » وهناك قبض عليه أميرها « أليسع بن مدرار » وهكذا وقع ما كان يخشاه . وكان ذلك سنة ٢٩٦ هـ .

إن المصادر التاريخية لا تذكر لنا الأسباب التي جعلت المهدي يسلك هذا الطريق الصحراوي البعيد ليصل إلى أرض ليس له فيها صديق ، وكان بإمكانه أن يختصر ذلك ويسلك طريقاً أقصر ليصل إلى الأراضي الواقعة في المغرب الأقصى التي يسيطر عليها أبو عبد الله الشيعي ؟ فهل ضل المهدي الطريق . أم أن هناك أسباباً أخرى ؟ هذا كله لم يتطرق إليه أحد من المؤرخين .

ونعود إلى «أبي مهزول» قائد القرامطة فإنه ما كاد يطلع على

كتاب المهدي حتى أدرك أنه وقع ضحية حيلة ودهاء المهدي . وأنه بالفعل حدد مدة للرجوع وهي المدة الكافية لاجتيازه مناطق الخطر ، وبالرغم من كل هذا فإنه أرسل كوكبة من الفرسان وأمرها بالذهاب إلى «الرملة» والقبض على المهدي أو قتله عند اللزوم ، ولكن هذه الكوكبة ما كادت تصل إلى «الرملة» حتى كان المهدي قد اجتاز الأراضي المصرية، وهكذا عادوا بخفي حنين .

وأخيراً علم أبو عبد الله الشيعي وهو يتابع فتوحاته في المغرب الأوسط بما وقع للمهدي في «سجلماسة»، فقابل الخبر بعدم اهتمام ، وبكل برودة أعصاب لأنه كان يدرك بأن أقل تحرك من جانبه أو أي حماس يظهره فإنه يكون سبباً يدعو «أليسع» إلى ارتكاب جريمة القتل، وهذا الموقف المدبر جعل «أليسع» يشك في شخصية المهدي بقوله إلى المقربين منه: بأنه لو كان المهدي حقاً لتحرك أبو عبد الله ، ثم لماذا جاءنا من المغرب الأدنى دون أن يعرج على البلاد التي يسيطر عليها صاحبه ما دام هو المهدي ، كل هذه الاحتمالات وضعها «أليسع»، واكتفى أخيراً بأن أرسل رسالة إلى الخليفة العباسي في بغداد يطلعه فيها على تفاصيل قصة التاجر الإيراني المقبوض عليه ، ولكن الجواب تأخر وكان تأخيره من حسن حظ المهدي .

أما بالنسبة لأبي عبد الله الشيعي فإنه تابع تقدمه وفتوحاته كالمعتاد . دون أن يجعل سبباً لأحد أن يشك بخطته . وما زال يتقدم في سيره حتى وصل إلى ضواحي «سجلماسة» وقد استغرقت هذه الرحلة ما يقارب من الشهرين .

أما «سجلماسة» فهي مدينة جميلة يجري فيها نهران أصلهما واحد إذا قرب تشعب إلى نهرين يسلكان شرقاً وغرباً . وان موقعها في سهل واسع أرضه سبخة وحولها أرباض كثيرة وتبعد عن «القيروان» ستة وأربعين فرسخاً . وكان «بنو مدرار» قد جعلوها عاصمة لدولتهم .

أجل . . . بعد أن وصل أبو عبد الله إلى «سجلماسة» أحكم عليها الحصار وأنذر حاكمها «أليسع» بالاستسلام . ولكن «أليسع» رفض في بادىء الأمر . وأخيراً وجد أن لا قدرة له على الوقوف بوجه هذا الجيش الجرار الذي يحمل ألوية النصر . ففرّ تحت جنح الظلام مع أفراد عائلته . وكان قد أعدّ نفقاً خاصاً للهرب ينفذ إلى خارج المدينة . وبعد فراره سنة ٢٩٦ هـ فتحت المدينة أبوابها ودخلها أبو عبد الله وسط الأهازيج وأغاني النصر وتقدم فوراً إلى سجن المهدي فأخرجه وأركبه على حصانه وجاء به إلى الساحة العامة التي اجتمع فيها الجيش وقدمه بقوله :

« هذا هو المهدي الذي كنت أبشركم به » .

إن التاريخ الطافح بالأحداث والأخبار والقصص الشيقة لم يفصح لنا عن الأسباب التي حدت «بأليسع بن مدرار» إلى الاحتفاظ بالمهدي هذه المدة التي تقارب من الشهرين ؟ فهل كان يخشى أن لا يكون الرجل المقبوض عليه هو المهدي الحقيقي فيرتكب بقتله جريمة يؤاخذ عليها ؟ أم أن المهدي تمكن من شراء سكوته بما تقدمه إليه من أموال وهدايا ، كما فعل مع غيره ، وهناك من يقول ان «أليسع» كان يريد أن يساوم أبو عبد الله الشيعي على المهدي ، وينقذ بلاده وملكه به : لو أن أبا عبد الله أظهر جزعاً أو خوفاً أو اهتماماً . . . كل هذا يجعلنا نقف أمام التاريخ قائلين :

أيها التاريخ كم في زواياك من قضايا غامضة ، وكم أغفلت ذكر حوادث مجهولة لا يزال الناس يترقبون جلاءها باشتياق .

ومهما يكن من أمر فرحلة المهدي الشاقة العجيبة لا يزال يكتنفها الكثير من الأسرار ، ولعل الأقدار وحدها والأعمار والحظ هم وراء كل ما وصل إليه المهدي كما يجب أن لا نغفل جرأته وعبقريته وتدابيره فجميع هذا ساعد على تخطي العقبات . والوصول أخيراً إلى الأهداف .

إننا ونحن نكتب قصة الرجل العظيم نحني رؤوسنا أمام عظمته ، ونقف بفخر واعتزاز أمام الرجل الذي اجتاز الصعاب بمفرده . ووصل إلى ديار غريبة عنه . فاستطاع بفترة قصيرة أن يؤسس دولة كبرى ، وأن يجعلها ذات كيان . ومحط أنظار العالم في هذه القارة المترامية الأطراف .



عبيد الله المهدي
أمير المؤمنين وخليفة المسلمين

أخرج أبو عبد الله الشيعي «المهدي» من سجن بني مدرار أصحاب «سجلماسة» وهو يجر أذيال النصر والخيلاء . أخرجه وجاء به إلى قصر المدراريين وأجلسه في مقام الخلافة وأوعز إلى قواد الألوية ورؤساء الكتائب بمبايعته وبالمناداة به خليفة للمسلمين ، وأميراً للمؤمنين هذه الجيوش التي أبت إلاّ أن تعلن عن طاعتها ووفائها والتزامها بما عاهدت عليه . وبعد أن تمّ هذا وسط الأهازيج والمهرجانات التي دامت عدة أيام ، ذهبوا بالمهدي وعائلته إلى مدينة «القيروان» وذلك سنة ٢٩٦هـ ، وهناك وفي وضح النهار بايعه الزعماء والقواد وأفراد الجيش الذين جاءوا من كل مكان ، واحتشدوا في ساحة القصر ، بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء ورجالات الدين . وأصحاب القبائل المعروفين . وكلهم هرع لإعلان الطاعة

والولاء، وبعد أن تم ذلك، انتقل إلى مدينة «رقّادة» سنة ٢٩٧هـ فبايعه فريق آخر من الناس . وكان يقف بين يديه قائده الكبير ومستشاره الأول أبو عبد الله الشيعي ورؤساء كتامة . وهكذا أقام في قصر الإمارة ، وجلس في ديوانه ليعلن للملأ مباشرة الأعمال . فكؤوس النصر المترعة . ومهرجانات الفرح والابتهاج يجب أن تنتهي ليبدأ بعدها العمل فالدولة الفتية بحاجة إلى بنيان ثابت ودعائم قوية وسواعد متينة ، واشتراك المخلصين بالواجب ، وهكذا كان ، فإن المهدي شمّر عن ساعده . وبرز إلى الساحة ، فعيّن القواد والوزراء والخبراء والعمال والولاة والقضاة ، وأقام الدواوين ، وشرع بالبنيان والعمران بهمة لا تعرف الكلل . كما خصص قسماً من أوقاته للسهر على راحة الشعب ، وسماع الشكاوى وتأمين حاجاته ، وتوفير الأمن والاستقرار والرفاهية والحياة الأفضل ، وكانت مبادئه تستند إلى إقامة حكم عسكري عادل يقوم على أسس العدل والحرية والمساواة . كل هذا ولم يشغله أي شاغل عن تنظيم الجيش وتقسيمه إلى فرق وكتائب مستقلة مرتبطة بقيادة عامة ، كما جعل له ولأفراده وقواده الرواتب الشهرية التي تكفل لهم حياة تتناسب مع ما يقدمونه للوطن من خدمات وتضحيات ، ولم يغرب عن باله بذل الجهود والاهتمام بشؤون الواردات

والنفقات وتأمين حاجات الدولة ، وغير ذلك من القضايا التي ترفع بنيان الدولة الفتيّة وترسي قواعدها ، وهكذا تمكن من إظهار وجه الدولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فدانت له البلاد ، ورضخت إليه القبائل ، وهذه المرحلة تعتبر مرحلة البناء والعمران وإقامة الدعائم ، وكلها تطلبت جهوداً مضنية ، واهتمامات ، وبذل نشاطات جبارة ، وحول هذا الموضوع نستطيع أن نقسم مدة حكم المهدي إلى مراحل ثلاث :

— المرحلة الأولى :

تبدأ هذه المرحلة بوضع الأساس لبناء الدولة ، وإقامة قواعدها وأعمدتها وكل هذا تطلب خبرة ومعرفة بذلها المهدي باختيار المعاونين والولاة والقواد ورؤساء الأقسام ، وربابنة السفن ، وهذا دليل على أن المهدي لم يكن حلمه الاكتفاء بإمارة صغيرة فقيرة بمواردها وعدد سكانها ووارداتها وقوتها العسكرية ، بل كانت أمانيه تمتد إلى أبعد من ذلك . . . كان يريد أن يقيم دولة كبرى ، أو أمبراطورية توازي بقوتها الدولة العباسية بل تفوقها مدنية ورقياً وقوة وحضارة . فالقضاء على دولة الأغالبة في المغرب الأوسط ليس كافياً بحد ذاته ، بل

يجب أن يمتد هذا الزحف شرقاً وغرباً بحيث لا يحول بينه وبين المحيط الأطلسي حائل ، لهذا حسب حساباً لدولة الأدارسة ، وقرر أنه لا بد له من خوض حرب معهم للوصول إلى الأندلس ومن جهة ثانية لإخضاع القبائل الكبيرة الأخرى وضمها إلى سلطانه . وهذه القبائل تخيم على حدود دولته ، كما يبقى عليه ضم أجزاء المغربين الأقصى والأدنى بتمامهما إليه بالإضافة إلى جزيرة « صقلية » التي منها يستطيع أن ينطلق إلى البحار المتصلة بالعالم الغربي ، أما مصر فتبقى أمنيته الوحيدة والغاية والهدف ، ففي ضمها إلى دولته الفاطمية قطع الشريان الحياتي للدولة العباسية ، وهدم نفوذها ، وانتزاع جزء كبير من أمبراطوريتها كما أن من مصر يمكن الانطلاق إلى أجزاء أخرى من العالمين العربي والإسلامي . . . فكل هذا خطط له المهدي في المرحلة الأولى على ضوء مشاركة ورأي قائده الأول أبو عبد الله الذي ما انفك عنه ، وما برح يقيم بين يديه ليمده بالمعلومات ويزوده بكل ما يساعد على تسهيل المهمة والوصول إلى الهدف .

ب ــ المرحلة الثانية :

تبدأ المرحلة الثانية من خلافة المهدي ما بين سنة ٢٩٧هـ إلى سنة ٣٠١هـ ففي خلال هذه المدة تمّ لعبيد الله تسلم جميع

الصلاحيات ، والاضطلاع بكافة المهمات القيادية وبالسيطرة التامةعلى كافة مرافق الدولة ، وتجريد الولاة والقواد من النفوذ المتزايد ، والحد من صلاحياتهم ، وجعلهم تحت السيطرة التامة يرجعون إليه في كل شاردة وواردة . وبذلك أثبت أنه القائد الذي يستلهم العمل من العقل المدرك والفكر النير . ومن تجاريبه ومعرفته بأنه يجب أن يكون السيد المطلق الذي لا يعلو على رأيه رأي آخر . . . فبعد أن تم تعيين الولاة والعمال والقواد ، نراه في هذه المرحلة يعمد إلى إقالة بعضهم بعد أن ثبت له عدم الكفاءة ، وتبرز على ساحة الأحداث في هذه المرحلة أخطر قضية وهي وضع حد لنفوذ «أبو عبد الله الشيعي» الذي لم يكن يقف عند حد ، والتقليل من أهميته وشأنه ، ولهذا نراه يعهد إليه بمهمات صغيرة في الأقاليم بغرض إبعاده عن مقر الخلافة ، والتخلص من مداخلاته التي فيها تعد على صلاحيات الخليفة ، وهكذا شقيقه « أبو العباس » ومن يسير بركابهما من القواد والولاة والزعماء .

وفي هذه المرحلة أيضاً عين المهدي والياً على جزيرة صقلية فاستطاع هذا الوالي بمدة قصيرة من أن ينظم شؤون الجزيرة وأن يهدد جنوبي إيطاليا . فهاجم « كلابريا » أو « قلورية » كما يسميها العرب . وولّى أيضاً على طرابلس والياً ، وعلى

«برقة» آخراً. وبمعنى أوفى لم يقتصر اهتمامه على المغرب الأوسط بل امتد للمغرب الأدنى ، وهكذا للمغرب الأقصى فعيّن على «تاهرت» واليسا من قبله ، كما أنه وجه أبو عبد الله إلى جنوبي «كتامة» على رأس حملة لإخضاع قبيلة «زناتة» وكانت قد أعلنت عن عصيانها .

ومهما يكن من أمر فإن السنوات الأولى من خلافة عبيد الله المهدي وهي المعروفة بسنوات الإنشاء والتأسيس والفتوحات واستئصال الفتن والقلاقل الداخلية ، فهذه السنوات كانت عسيرة وفيها تصاعد الصراع الداخلي على السلطة بين المهدي وقائده أبو عبدالله الشيعي . ولكن المهدي وقف من كل هذا موقف رجل الدولة الساهر على شؤون دولته بعناية وحذر بما عرف عنه من قدرة وهمة ودهاء . وبالفعل تمّ له اجتياز العقبات وإبعاد أعداء الدولة واحداً إثر واحد . وبفترة قصيرة حقق الكثير من الإنجازات وأصبح هو الحاكم المطلق الذي لا ينازع .

ولا بد لنا من القول ان الأحداث الرهيبة . والقلاقل الداخلية وقد ألمحنا إليها لم تقف بوجه اهتمامه عن توسيع رقعة دولته ، وتعزيز مكانتها ، والسهر على مصالح الشعب ،

ومن أبرز تلك الأحداث التي وقعت بل من أكثرها عنفاً وصدى وهي تعتبر فاتحة العصيان ، وقد حدثت عندما أقدم أهل طرابلس على عزل الوالي الفاطمي وذلك سنة «٢٩٨»، ونتج عن ذلك قيام بعض «الزناتيين» باحتلال «تاهرت»، ولكن مهارة المهدي وحسن تصرفه أنقذ المدينة ، وأعاد لها اعتبارها وارتباطها بالدولة الفاطمية ، وتم تعيين والياً عليها وهو أحد القواد الكتاميين المجربين .

ونعود إلى قصة «مقتل أبو عبد الله الشيعي التي ذكرنا عنها ، فهذا الحدث العظيم الذي وقع بعد عامين من قيام الدولة الفاطمية ، جاء ليبعث المتاعب ، ويضع العقبات ، بل جاء ليهدد الدولة بالانهيار . فمقتل أبو عبد الله ترك في نفوس الناس حزناً عميقاً ، فهو الرجل الذي أنصفهم وقادهم ، ووفر لهم أسباب الرغد والحياة الأفضل ، بل هو القائد الذي اجتمعت قلوب الناس على اختلاف مذاهبها على محبته واحترامه فهؤلاء لم يكن بإمكانهم نسيان الرجل الذي وهبهم حياته بهذه السرعة ، أو نزع صورته من أفكارهم ، والحقيقة فإن تلك القصة المروعة كادت تزعزع أركان الدولة ، وتقضي عليها قبل أن تتم ولادتها .

كل هذا ونحن أمام أحداث تواجه المهدي بعد الحدث

المذكور . فالمهدي أصبح وحيداً في الساحة ، غريباً في ديار لا يعرف عنها إلاّ القليل ، بينما خبرة أبو عبد الله تجاوزت العشرة سنوات ، في خلالها توصل إلى معرفة كل شيء عن المغرب ورجالاته وقبائله وعاداتهم وتطلعاتهم وما بينهم من علاقات ، على أن كل هذا وضعه عبيد الله في حسابه ، فتمكن من الوقوف على رجليه مستعملاً دهاءه وخبراته وإرادته التي لا تعرف التردد ، ويجب أن لا ننسى أن بعض القواد الذين جاء بهم أبو عبد الله ، سكتوا على مضض ، وانحازوا إلى القائد الجديد بعد أن علموا أن أبا عبد الله مات ولم يعد بإمكانه الرجوع ، ولكن تبقى الريبة التي تساور المهدي منهم ، ونأخذ على سبيل المثال « عبد الله بن القديم » وهذا أحد رجالات بني الأغالب – ملوك تونس – فهذا الرجل الخبير تمكن أبو عبد الله من استقطابه وجعله تحت تصرفه ومن أصدقائه ، وعندما تسلّم المهدي شؤون الدولة استخدمه واستعان به في كثير من الأعمال ، ووكل إليه مهمات ذات شأن وأهمها الديوان والمراسلات ، ولكنه بعد مقتل أبو عبد الله داخلت الريبة المهدي من تصرفاته فاتهم بالاشتراك بالمؤامرة والانحياز لأعداء الدولة ، وكان هذا سبباً لإبعاده والتخلص منه بالقتل .

ويأتي بعده « حباسة بن يوسف » الكتامي ، وكان من

أعوان « أبو عبد الله ، وبعد استلام المهدي شؤون الملك عيَّنه والياً على «برقة» ، كما عين شقيقه « عروبة بن يوسف » على ولاية «تاهرت» ، والمعروف عن حباسة هذا أنه قاد الحملة الفاطمية الأولى على مصر ما بين سنة ٣٠٠هـ إلى سنة ٣٠١ هـ بالاشتراك مع ولي العهد « القائم بأمر الله » ولكن المهدي أمر بقتله بعد عودته لثبوت اشتراكه وانحيازه إلى جماعة أبو عبد الله الشيعي ؛ كما ألحق به شقيقه عروبة الذي كان والياً على «تاهرت» كما قلنا ، فطلبه المهدي للمثول أمامه ، ولكنه فرّ ، ولم يمنعه الفرار من الوقوع بقبضة المهدي ومحاكمته بتهمة قتل أبو عبد الله الشيعي دون إذن ، وقد ذكرنا ذلك في الصفحات السابقة .

في هذه المرحلة أيضاً ثارت قبيلة « زناتة » في تاهرت ، كما ظهرت ثورة بعض القبائل من أفخاذ كتامة وجميعها انتصاراً لأبي عبد الله الشيعي ، كما سار في هذا السبيل بعد ذلك أهالي جزيرة صقلية معلنين العصيان على الدولة ، ولكن كل هذا لم توهن من عزيمة المهدي أو تلين قناته ؛ وقد استطاع بجهوده وجهود ولي العهد القائم بأمر الله من إعادة الهدوء والاستقرار إلى المناطق الثائرة ، والمشهور عنه أنه قاد بنفسه تلك الحملات ، كما أوكل إلى ولي عهده أمر قيادة بعض

الحملات وأكثرها تجلل ، بالظفر والنجاح . فقد تمّ في نهايتها إخضاع طرابلس وإعادتها إلى الحظيرة الفاطمية ، وإشاعة الهدوء والاستقرار في المناطق القريبة منها ، وفي بلاد كتامة .

ج ـ المرحلة الثالثة :

تبدأ هذه المرحلة، وهي الثالثة ـ ما بين سنة ٣٠٢هـ حتى سنة ٣٠٩هـ وهي في الواقع من أعنف الفترات عنفاً وتقلباً واضطراباً . ليس في الولايات الفاطمية في المغرب الأقصى ، بل في كل أجزاء المغرب ، وعلى الأخص جزيرة صقلية . وقد يكون أسباب هذا التوتر كثيراً ، ولعل أهمه مقتل حباسة ابن يوسف وشقيقه عروبة وكلاهما من زعماء كتامة البارزين مضافاً إلى بعض القواد الكتاميين والمغربيين الآخرين الذين قادوا الجيوش ، وساهموا بالفتح وأحرزوا الانتصارات ، وركزوا قواعد الدولة الفاطمية ، وكانت فاتحة الاضطرابات ظهور ثورة أو عصيان في برقة وكان حباسة والياً عليها كما ذكرنا ، ولما كانت هذه المقاطعة تشكل أهمية خاصة للفاطميين الذين نظروا إليها كقاعدة للانطلاق نحو الأراضي المصرية ، وهم الذين ما فتأوا يتطلعون بشوق إلى الديار المصرية . وهنا كان لا بد للمهدي أن يعهد إلى ولي العهد «القائم بأمر الله»

بالذهاب إليها على رأس حملة ، فتمكن بعد سلسلة من المعارك دامت سنة ونصف من إعادتها إلى الحظيرة الفاطمية ، وتظهر أيضاً في هذه المرحلة قضية « تاهرت » الواقعة في المغرب الأوسط وكان أبو عبدالله الشيعي سنة ٢٩٦هـ قد اتخذها قاعدة لتوجيه قواته نحو المغرب الأقصى ، وتاهرت اسم لمدينتين متقابلتين وقد ملكها «بنو رستم» زهاء مائة وثلاثين عاماً ، ففي هذه المرحلة ولّى المهدي عليها أحد قواده البارزين « مصالة بن حيوس » وجاء تعيينه بعد مقتل عروبة بن يوسف ، فبدأ مصالة حياته العسكرية بصراع عنيف مع قبائل « صنهاجة » ؛ وقد تمكن في نهاية المطاف من الاستيلاء على قاعدتهم « ناكور » سنة ٣٠٥هـ ، وكان هذا هو بدء الصراع الدامي العنيف بين الفاطميين والأدارسة ومعهم الصنهاجيين ، أو بلغة أصح بين الفاطميين والأمويين . وعلى رأس الأول عبيد الله المهدي ، والثانية الناصر الأموي .

ولمّا كان الصنهاجيون يمتلكون قوة عسكرية كبيرة كثيراً ما تصدت وهددت دولة الأغالبة ، ووقفت في وجهها ، فإن المهدي خشيهم وحسب لهم حساباً وكثيراً ما كان يرسل أوامره بضرورة التودد إليهم حيناً ، وتهديدهم حيناً آخر ، ولكن كل هذا لم يدخل الطمأنينة والثقة إلى قلوبهم . فكانوا

في كافة المراحل يقفون موقف المعارض ، وهذا ما جعل القائد «صالة يبادر إلى احتلال قادتهم وضرب فلولهم ، وبعد أن تم له ذلك كتب إلى المهدي يعلمه بما أحرزه من نصر وبما غنمه من غنائم ، كما وصف له فرار أمراء «بنو صالح» إلى الأندلس والتحاقهم «بالناصر الأموي» فأمره المهدي أن يفعل ما يريد وأطلق يده بإجراء كل ما يعيد للدولة الفاطمية هيبتها ومكانتها ، فبعد أن وطد الأمور عاد إلى تاهرت وولى على ناكور رجلاً يقال له «ذلول» ولكن «صالح بن سعيد الصنهاجي» هاجمه سنة ٣٠٥هـ بقوة كبيرة مولها الأمويون بالمال والعتاد، فتمكن من قتل ذلول وأصحابه ، واستلام المدينة ، وإعلان الولاء للأمويين .

وفي هذه المرحلة أيضاً من حكم المهدي برزت على مسرح الأحداث ، وواجهة الوقائع قضية «الأدارسة» ودولتهم في «مكناس» ، فقد ظهر أحد قوادهم على رأس قوة كبيرة في مكناس يهدد الدولة الفاطمية ويقوم بأعمال القرصنة والتعديات على حدودها . فأرسل إليه المهدي حملة عسكرية عهد بقيادتها إلى ولي العهد القائم بأمر الله فتمكن سنة ٣٠٥هـ من إخماد نار الفتنة وإعادة نفوذ الفاطميين ثم القضاء أخيراً على زعامة الأدارسة في مكناس . إذ عين عليها والياً من قبله هو «حميد

ابن يصالل » ولكن موسى عاد ثانية ، وقام بثورة جديدة أطاحت بالوالي الجديد ، ومن المشهور أنه قتله وأرسل رأسه إلى الناصر الأموي ، وقد شجع هذا العمل يحيى بن إدريس وهو آخر ملوك الأدارسة وكان يتمتع بنفوذ كبير لم يبلغه أحد من أسلافه ، فقام بحركة ثورية على الدولة الفاطمية كادت تشمل بلاد المغرب الأقصى بتمامه ، فأوكل المهدي إلى القائد المجرب مصّاله بن حبوس أمر تصفية الحساب مع يحيى ، كما أمدّه بالجيوش ، ويذكر التاريخ أنه تقدم بسرعة وعندما التقى بيحيى قرب مكناس دارت بينهما معركة كبرى انتهت بهزيمة يحيى وانسحابه إلى فاس واعتصامه فيها ، ولكن مصالة لحق به وحاصره ، فاضطر أخيراً إلى طلب الصلح لقاء تأديته بعض الأموال ، ومبايعة المهدي بالخلافة ، فقبل مصالة الطلب بعد الاستئذان وموافقة المهدي على إبقائه في فاس ، كما أنه ولّى ابن عمه «موسى بن العافية» على مقاطعة أخرى في أحد الأقاليم الخاضعة للفاطميين ، ومما يجب أن يذكر أن موسى كان في بداية أمره مخلصاً للفاطميين ، وأنه كان على اتصال مستمر مع أبي عبد الله الشيعي ، وكان كثيراً ما ذكره بضرورة احتلال بلاده ، وضمها إلى الدولة الفاطمية ، ولكنه في النهاية انقلب عليهم .

وفي سنة ٣٠٩هـ عاد القائد مصالة إلى فاس، فاجتمع بموسى الذي أوغر صدره على ابن عمه يحيى متهماً إياه بالخيانة والاستغلال والإثراء والاتصال سراً بالأمويين . وهذا ما جعل مصالة يقبض عليه ويستصفي أمواله ، ثم أنه نفاه إلى خارج المنطقة، فذهب إلى بلاد الريف وكان له فيها أبناء عمومة، ولكن مصالة خاف من أن يكون ذهابه إلى تلك الأماكن بداية للقيام بأعمال مخلة بأمن الدولة فلحق به وألقى القبض عليه . ثم أنه سجنه لمدة عشرين عاماً . وأطلق سراحه بعد ذلك فجاء إلى « المهدية » وعاش فيها بقية حياته حتى سنة ٣٣٢هـ .

بعد هذه الأحداث عاد القائد مصّالة إلى فاس ، وولّى عليها « ريحان الكتامي » ولكن مدة ولايته كانت قصيرة لأن محمد بن القاسم الإدريسي الملقب «بالحجّام» وهو من الأسرة الإدريسية ثار عليه وتمكن من قتله سنة ٣١٠هـ والاستيلاء على فاس ، ولم يكتف بذلك بل مدّ نفوذه إلى أبعد من حدود فاس. فكلف المهدي ابن عمه « موسى بن العافية » بمحاربته فزحف عليه على رأس قوة كبيرة ، ودارت بينهما معارك طاحنة قتل في إحداها ابن موسى كما قتل محمد في المعركة الثانية، وكل هذا مهد لموسى الاستئثار بتركة الأدارسة ، وبعد فترة طمحت نفسه لدرجة أنه خلع طاعة الفاطميين وبات يهدد بلدانهم

وممتلكاتهم في المغربين الأوسط والأقصى ، وكان يتلقى الدعم المادي والمعنوي والعسكري من الأمويين في الأندلس وهذا ما حرّك المهدي على إرسال حملة عسكرية قوامها خمسة عشر ألفاً من المحاربين بقيادة «حميد بن يصال» صاحب تاهرت وابن أخ مصالة الكتامي ، فتمكن بعد سلسلة من المعارك من الاستيلاء على البلدان التي احتلها موسى ، وأخيراً ضيق عليه الخناق وأجبره على الفرار تاركاً فلول جيوشه عرضة للقتل والأسر .

وفي هذا كله اختتمت حياته ، وحياة الأدارسة ؛ وعاد الهدوء والاستقرار إلى المغرب الأقصى ، ورفرفت على أرجائه راية المهدي ، وأعلام دولته الفاطمية الفتية .

كان لا بد لنا ونحن نتحدث عن دولة الفاطميين في المغرب من إيراد هذه اللمحات الموجزة التي لها العلاقة المباشرة بحياة « عبيد الله المهدي » وما قام به من أعمال وهو في بدء خلافته ، وكيف تمكن من إرساء قواعد دولته الفاطمية الفتية .

الديار المصرية محط أنظار الفاطميين

لم تكن دولة المهدي الفاطمية في المغرب ، تظهر على مسرح الدنيا العربية والإسلامية ، أو تعيش طويلاً لولا أن يكون من مبادئها التنظيم والإدارة ، وإقامة العدالة ، وإحلال النظام ، فالفاطميون وهذا جلي وواضح عندما أرسوا قواعد دولتهم ، وضعوا نصب أعينهم مبدأ منافسة العباسيين وسبقهم في مختلف المجالات ، وهكذا بالنسبة للأمويين ، فوضعوا القواعد وأقاموا الأعمدة ،وتطلعوا إلى الديار المصرية التي هي مهوى أفئدتهم ، فأرسلوا إليها الدعاة للقيام بالدعاية وكسب الأنصار والمؤيدين ،وكان هذا في وقت مبكر أي قبل ظهور دولتهم ، وبعد ظهور الدولة الآنفة الذكر في المغرب ، باشروا بالدعاية ، ولكن بأسلوب جديد ، فبالأمس لم يكن لهم دولة ، أما اليوم فإنهم يتكلمون من منطلق القوة ، وبالفعل تمكنوا من إيجاد قواعد لهم في تلك الديار كانت مهمتها تنبيه الشعب المصري

إلى مساوىء الحكم العباسي ، وإلى ضرورة الانضمام للدولة الفاطمية الجديدة ، واستعمل الفاطميون كافة أسلحة الدعاية من ثقافية وفكرية وأدبية فاستقبلوا العلماء وبعض رجال الدين ، والأدباء ، والشعراء ، ووجهوا اهتمامهم خاصة إلى الأدب والعلوم والمعارف . وكرسوا أوقاتهم لترسيخ ركائز دولتهم التي أرادوها أن تكون متقدمة في نظمها ، وإدارتها ، ومتطورة في قوانينها وأساليب حكمها ، وهكذا قربوا الأدباء وساعدوا العلماء ، ورفعوا من شأنهم ، وأوجدوا لهم مراكز حساسة في الدولة ، ومنحوهم المسؤوليات والصلاحيات ، معترفين بأن كل دولة لا يكون للعلم وللثقافة فيها نصيب فلا تلبث أن تنهار . وتذهب طعماً لتيارات الجهل والغباء . ولا غرابة في ذلك فعبيد الله قائد هذه الدولة عاش في بلدة «سلمية» كما ذكرنا — المدينة التي انبثقت من ربوعها جمعية «إخوان الصفاء وخلان الوفاء» أو الأكاديميين العرب الأوائل الذين صنفوا أول دائرة معارف عربية فلسفية اعتبرها الشرق والغرب الأساس لكل الفلسفات التي جاءت بعدها .

ففي هذه البلدة — نال عبيد الله المهدي ثقافته وتعليمه ، وعلى أيدي هؤلاء الفلاسفة الكبار تدرب على شؤون الحكم والملك وإدارة الشعوب ، ولكن هل كان كل هذا كافياً ؟

في الواقع ؛ وفي اعتراف خبراء التاريخ إن كل فتح لبلد من البلدان لا بد له من قوى عسكرية تتولى إسكات المعارضين ، وتأمين التوسع والانتشار . والدولة الفاطمية في بدء ظهورها كانت تعاني الكثير من الاضطرابات ، والانتفاضات ، بالإضافة إلى فقدان المقومات ، والإمكانيات التي تكفل لها الوقوف بوجه الأمبراطورية العباسية الكبرى ومجابهتها ، ولكن كل هذا لم يقف حائلاً بوجه المهدي عن تخصيص قسم من أوقاته لشؤون القطر المصري معتقداً بأن احتلاله ، وضمه إليه ضرورة حيوية من جهة ؛ وضربة قاصمة للعباسيين . ولأجل هذا يذكر التاريخ أنه تم إرسال ثلاثة حملات عسكرية إلى الديار المصرية في عهد المهدي وهي كما يلي :

أ ــ الحملة الأولى :

في سنة ٣٠١ هـ أعد الخليفة المهدي جيشاً من المغاربة كانت أكثريته من قبيلة « كتامة » وقد عقد قيادته للقائد الكتامي « حباسة ابن يوسف » وكان والياً على برقة من قبل الفاطميين ، فزحف إلى الديار المصرية باتجاه الاسكندرية ، وبفترة قريبة تمكن من احتلالها واحتلال كامل الوجه البحري . ومن الجدير بالذكر أنه لم يلق مقاومة تذكر . وعندما علم الخليفة العباسي المقتدر

بذلك هاله هذا الهجوم المباغت ، فأمر باعداد حملة عسكرية يكون قوامها أربعين ألفاً ، وجعل «مؤنس الخادم» عليها ، فجاء إلى مصر ، واشتبك مع الجيش المغربي بمعارك عديدة ، تمكن في نهايتها من الانتصار وإرغام حباسة على التراجع ، ولم تنفع الإمدادات التي أرسلها المهدي وعلى رأسها ولي العهد «القائم بأمر الله» ، ومن الجدير بالذكر ان قوى العباسيين كانت أكثر عدداً وتنظيماً من الجيش الفاطمي الذي لم يكن بعد قد وصل إلى المرحلة التي تؤهله لخوض الحروب الكبرى . مضافاً إلى نقص في العتاد والمواد الغذائية ، ووسائل أخرى ، ويذكر التاريخ ان الشعب المصري في تلك الفترة وقف موقفاً عجيباً فقد انقسم إلى فريقين : فريق مؤيد للمغربيين الفاطميين ، وفريق مؤيد للعباسيين وكان من الطبيعي إزاء هذه الأوضاع أن تندلع ثورات أهلية دامية ، ولكن الجيش العباسي تمكن من إخمادها .

ب ـ الحملة الثانية :

لم تقف هزيمة الجيش الفاطمي الأولى في مصر ، أمام تطلعات المهدي وآماله فعاد يعيد الكرة سنة ٣٠٧ هـ ، وجهّز حملة عسكرية ثانية أكثر عدداً وعدة ، وزودها بالمؤونة وبكافة

المتطلبات والضروريات ، وهذه المرة أرسل معها « الأسطول الفاطمي » وكان قد أصبح حقيقة واقعة . فحمل هذا الأسطول الذي انطلق من قاعدته في «صقلية» يحمل المزيد من المؤونة والعتاد، ثم أن المهدي عهد بقيادة هذه الحملة إلى ولي العهد « القائم بأمر الله» فزحف من المغرب عبر طرابلس وبرقة، وتمكن في فترة قصيرة من الاستيلاء على الاسكندرية ، والجيزة ، والوجه البحري ، ولكن الخليفة العباسي المقتدر علم أيضاً بالأمر ، فجهز حملة ثانية قدر عدد أفرادها بستين ألفاً ؛ وعهد بقيادتها إلى « مؤنس الخادم» . فاشتبك بمعارك طاحنة مع المغربيين ؛ وأخيراً تمكن من إلحاق الهزيمة الثانية بهم ، كما أنه تمكن من إحراق بعض مراكبهم وسفنهم التي كانت راسية في الاسكندرية وهكذا عاد «القائم بأمر الله» يجر أذيال الفشل والخيبة .

ج ـ الحملة الثالثة :

وفي سنة ٣٢١ه حتى ٣٢٤ه أعاد المهدي الكرة للمرة الثالثة ؛ فجهز حملة أكثر عدداً وتنظيماً وعهد بقيادتها إلى القائد الكتامي « حبشي بن أحمد » فتمكن بفترة قصيرة من الاستيلاء على أكثر بلدان ومدن القطر المصري ؛ مما دعا زعماء البلاد والشيوخ إلى المثول بين يديه وإعلان الطاعة والولاء ، وقد

اتفقوا معه فيما بعد على توقيع معاهدة صلح اعتبروا فيه أنفسهم من رعايا الدولة الفاطمية ، فعادت أكثر الجيوش الفاطمية إلى المغرب سوى قسم ضئيل للحراسة في المدن ، والمواقع المهمة ، ولكن بعد مدة تجند الاخشيديون وأنصارهم ، وقاموا بثورة داخلية ضد الاحتلال الفاطمي ، وتمكنوا من قتل الجنود المغربيين وإعادة البلاد إلى الحظيرة العباسية ، ولم يستطع أتباع الفاطميين الوقوف طويلاً في وجه الإخشيديين فاستسلموا للأمر الواقع وناموا على مضض ، وهكذا عادت المياه إلى مجراها الطبيعي في مصر وفشلت المحاولات الثلاث التي أثقلت كاهل الدولة الفاطمية بالنفقات والأموال الطائلة .

صقلية قاعدة الفاطميين البحرية

هذه الجزيرة ذات الموقع الحربي العظيم في البحر الأبيض المتوسط . بل هذه القاعدة البحرية التي كانت في غابر العصور وما زالت من أهم المرافىء التجارية والحربية في العالم استأثرت بتفكير واهتمام الفاطميين . وانّنا نرى القائد الفاطمي الكبير « أبو عبد الله الشيعي » منذ أن حطّ رحاله في الأراضي المغربية بشمالي أفريقيا ، أي قبل وصول عبيد الله المهدي وإعلان الدولة الفاطمية . يبذل الجهود في سبيل الاستيلاء عليها وضمها إلى دولته ؛ وفي تاريخ الدولة الفاطمية الصفحات الطوال من الأخبار والوقائع عن هذه الجزيرة الهامة .

أجل . . . لم يكد أبو عبد الله يحرز انتصاراته الحاسمة على الأغالبة ويتسلّم بلدانهم حتى أرسل إلى صقلية موفداً لدعوة أهلها إلى الاستجابة إليه ، والانضواء تحت لواء دولته ؛ فهب أهالي الجزيرة ولبوا نداءه ثم أنهم هجموا على الوالي المعين من قبل

الأغالبة «الحسن بن رباح» فعزلوه ، وولوا مكانه عليهم «علي بن أبي الفوارس» ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا إلى أبي عبيد الله التماساً يطلبون منه الموافقة على قرارهم ، واعتبار الجزيرة بعد الآن من ممتلكات الدولة الفاطمية .

ولما تسلّم عبيد الله المهدي شؤون الدولة الفاطمية ، وضع قانوناً أساسياً للدولة بالاعتماد على الكتاميين ، وتوليتهم أرفع مناصب الدولة باعتبارهم من المخلصين الذين بذلوا الدماء في سبيله ، فأرسل من قبض على أبي الفوارس ، وولّى مكانه «الحسن بن أحمد» الكتامي ، ولكن حدث بعد هذا أن قامت ثورة كبرى في الجزيرة ضد الكتامي ، وكان الثائرون يعلنون عن رفضهم العيش في ظل حكم البرابرة .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه فيسنة٢٩٩ هـ أي قبل وقوع ما أشرنا إليه ، ولّى عبيد الله المهدي على الجزيرة «علي بن عمر البلوي» ولكنه لم يلبث أن قتل مثل غيره بالرغم من أنه اشتهر بالتقوى والورع والطيبة والعطف على الشعب دون استثناء ، ويذكر التاريخ أن الذين حركوا تلك الثورة في تلك الفترة وأوقدوا نارها هم أنصار «أبو عبد الله الشيعي» وكل هذا انتقاماً من المهدي ورجاله .

في سنة ٣٠٠هـ عاد المهدي وعين على الجزيرة بالاتفاق مع وجوه وزعماء الصقالبة «أحمد بن قرهب» وكان عربياً. غير أن الكتاميين الذين يشكلون عدداً كبيراً في الجزيرة ثاروا عليه بسبب نزعته العربية الاستقلالية، وأشعلوا نار الثورة في الجزيرة، فهب العرب لنجدته، وكان أن اشتعلت نار حرب أهلية انتصر في نهايتها العرب على الكتاميين، فأعلنوا الولاء للدولة العباسية، وخلعوا طاعة الفاطميين، وهذا أثار غضب وحماس المهدي فأرسل سنة ٣٠٤ هـ حملة كبرى إلى الجزيرة واحتلها وتمركزت قواته فيها. كما عين عليها والياً هو القائد «أبو سعيد» المغربي ولكن هذا القائد لم يلبث أن قتل.

إن هذه الأحداث المروعة التي لم تكن لتهدأ في هذه القاعدة المهمة مما حدا بالمهدي في نهاية المطاف إلى اتخاذ تدابير جديدة وحاسمة بآن واحد، وبالفعل عين لها حاكماً عسكرياً وزوّده بالصلاحيات الواسعة، كما أطلق يده بشؤون الجزيرة دون الرجوع إليه إلا في الأمور الخطيرة، ومنذ ذلك الوقت والجزيرة تحكم عسكرياً. ولعل هذا ساعد جدياً على الاحتفاظ بها، وإشاعة الأمن والاستقرار في ربوعها، ومن ثم تحويلها إلى قاعدة بحرية كان لها أكبر أثر في حياة الدولة الفاطمية.

الغزو الفاطمي لبلاد الروم

من الرجوع إلى تاريخ المهدي ، وسيرته وأعماله وهو على رأس الدولة الفاطمية ، يظهر لنا واضحاً إنه كان حريصاً أشد الحرص على الاحتفاظ بجزيرة صقلية كقاعدة بحرية فاطمية مهما كلفه ذلك من تضحيات ونفقات ، وذلك لأسباب سياسية وعسكرية واقتصادية ، فخطة المهدي كانت ترمي كما ذكرنا إلى إقامة أمبراطورية فاطمية تكون لها عاصمة بحرية ، أو قاعدة لأسطولها الذي بناه وأعدّه وجهزه وسط الأحداث الداخلية ، والإعصار ، والفتن والثورت ، والغزوات. فلقد كان ينظر إلى غارات الروم المستمرة على بلاده ، فهذه الغارات يجب أن تتوقف مهما كلف الأمر بل يجب أن يكون هو المبادر إليها . . . وهنالك النفاذ إلى أماكن أخرى على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وهي ضرورية لبلاده ، ويدخل في نطاق كل هذا تحقيق أماله التوسعية في مصر وبلاد العرب ،

بحيث تصبح رقعة بلاده في المستقبل تمتد من شواطىء المحيط الأطلسي حتى حدود العراق مروراً بمصر والحجاز ، مضافاً إلى كل ذلك فإن جزيرة صقلية جيدة المناخ . كثيرة الفواكه والأثمار ، وفيها الأماكن الصالحة للراحة والاستجمام والاصطياف ناهيك عن كونها تصلح لأن تكون قاعدة تجارية عالمية تمول حركة التصدير والاستيراد للدولة الحديثة التي هي بأمس الحاجة إلى مرفأ للتجارة . ويضاف إلى كل هذا وجود المعادن فيها كالفضة ، والنحاس ، والرصاص ، والزئبق . من هنا جاء تطلع المهدي إليها ، وترشيحها لأن تكون القاعدة الحربية المهمة ، والمنطلق لبسط نفوذ الدولة في البحر الأبيض المتوسط ، وبالفعل فكّر المهدي بكل هذا قبل أن يقيم قاعدته البحرية الثانية على شاطىء البحر الأبيض المتوسط . والمعروفة بالمهدية .

أجل . . . لم تشغل الحروب والانتفاضات الداخلية المهدي عن النظر ناحية الروم ، واعتبارهم أعداء بلاده ، بل أصحاب الأطماع فيها ، أو بلغة أصح القراصنة المستعمرون الذين لا يهدأون ، ولا يتورعون عن إلحاق الأذى بالعرب . ولهذا يجب التصدي لمحاولتهم ، بل يجب القضاء على أحلامهم . وجعلهم في النهاية يرزحون تحت حكم العرب . وهكذا كان .

فإن المهدي سيّر أسطوله الكبير سنة ٣١٣هـ من صقلية وأمره بغارته الأولى على سواحل بلاد الروم ، رغم المعاهدة الموقعة بينهم وبينه سنة ٣٠٥ هـ، والتي تقضي بأن يدفع الروم للدولة الفاطمية جزية مقدارها ٢٢ ألف قطعة من الذهب في العام ، وتلك المعاهدة لم يلتزم بها الروم كما ذكر .

ففي سنة ٣٠٦ هـ وسنة ٣١٠هـ وسنة ٣١٢ هـ، وعلى فترات متتابعة ، جهّز المهدي حملات أخرى بعد أن كان قد أتم بناء سفن الأسطول ، فعهد إلى أمير البحر « جعفر بن عبيد » بغزو جميع البلدان الرومية الواقعة على ساحل المتوسط ، فأقلع الأسطول إلى بلاد انكبدره — لومبارديا .. بادىء ذي بدء ، وتمكن من الاستيلاء على بعض المواقع المهمة بعد أن غنم الغنائم الكثيرة ، وفي المرة الثانية استولى على مدينتي أوره وداري ويذكر التاريخ أنه قتل في حصارهما ما يقارب الستة آلاف من المقاتلين البيزنطيين ، وفي الثالثة أسر الأمير جعفر عشرة آلاف رجل من الروم ، كما أنه في إحدى الحملات تمكن من الاستيلاء على مدينتي تارنت ثم أورنت ، ولولا تفشي الأوبئة في قوات الأسطول الفاطمي لكانت وقعت أكثر بلدان الروم بأيدي الفاطميين .

مما يجب أن نذكره أن هذه الغارات درّت على خزينة

الدولة الفاطمية الأموال الطائلة ، وجعلتها في حالة الازدهار الاقتصادي ، بسبب الغنائم والمعدات والأموال التي كانت تدفع مقابل فك الأسرى .

وفي سنة ٣١٥هـ أرسل المهدي أمير البحر « صابن الفتى » على رأس حملة بحرية فاستولى على ناحية «الويران والحسب» ونهب كل ما فيهما ، ثم قصد مدينة « سلبر » . ولم يسلم أهلها من الموت إلا بعد أن قدموا الكثير من التحف والعتاد والأموال . كما أن هذه القوات البحرية سارت إلى نابلي « Neapolis » فدفع أهلها الجزية ، ولم يتوقف المهدي عند هذا الحد بل أعاد أمير البحر صابن على رأس حملة كبيرة أخرى فأغارت على « جنوا » ، واستولت عليها ، ومنها قصدت إلى « سردينيا » فخربتها ، وأعملت فيها الدمار .

إننا ونحن نقترب من نهاية تاريخ الخليفة عبيد الله المهدي لا بد لنا أن نشير إلى أهمية هذا التاريخ الذي قدمنا بشكل موجز ومفيد بحيث لم نترك شاردة أو واردة إلا وألمحنا إليها ، وكم يلزمنا الواجب أن ننحني باحترام أمام هذه الدولة العربية التي رفعت راياتها فوق سواحل أوروبا وإيطاليا حتى حدود بحر الأدرياتيك . فأين نحن الآن ؟ وهل من حقنا أن نفتخر ، أو ننسى تاريخنا وتراثنا ؟

المهدي امام معركة البناء والعمران

لم تشغل المهدي الحروب المتواصلة ،وفتوحات البلدان التي منها تتشكل دولته . كما لم تقف بوجهه الانتفاضات والمؤامرات والثورات الداخلية عن النظر بأمور الدولة الجديدة ، ومما تتطلبه في مجال البناء ، والعمران ، والاقتصاد . . . لقد كان على ثقة بأن البلدان والقرى والصحارى التي يرفرف عليها علم دولته الفاطمية يجب أن ينالها الإصلاح والعمران والازدهار ، ويتفرع من كل هذا إحداث الطرق وتعبيدها بين المدن الرئيسية ، وهذا مما يعزز الحركة التجارية ، ويسهل مرور القوافل ، ويجعل الاتصال بين البلدان سهلاً ، وعلى العموم فإن هذا هو شريان الدولة النابض الذي يتدفق منه معين التجارة والازدهار ، لهذا وجه عناية فائقة إلى هذه الناحية ، وفي مدة قصيرة أوجد شبكة من الطرق المعبدة ، فنشطت التجارة وعمّ الرخاء وأخذت موارد الدولة بالازدهار ، ناهيك عما في

ذلك من تسهيلات للجيوش الذاهبة إلى فتح الأمصار ، وتلفتت إلى ناحية الصحراء التي كانت تسلكها القوافل التجارية القادمة من الديار المصرية ، فكثيراً ما ُفقِدَ بعض هذه القوافل،ومات أفرادها عطشاً أو جوعاً أو هلاكاً فأمن لها محطات ، وزودها بكل ما تحتاج إليه من الضروريات التي تكفل لها تزويد القوافل بالماء والغذاء والمعلومات والمخططات والأدلة للطرق والمعابر الواجب سلوكها ، ولم يقف عند هذا الحد ، فإن تاريخ الدولة الفاطمية يذكر بأن المهدي نظم أيضاً شؤون البريد بين المدن البعيدة والقريبة على السواء . وجعل لها موظفين يتناوبون على الخدمة وتأمين الرسائل والأمانات ، كما جهّز لنقل البريد البري أسرع الأفراس ، وبعض السفن بالنسبة للبلدان والثغور الواقعة على سواحل البحار ، وكل هذا سهل الاتصال بين البلدان ، وأوجد حركة تجارية عامة مزدهرة وسريعة .

أما بالنسبة لعمران المدن وتنظيمها ، فالمعلومات التاريخية أيضاً تفيد بأن مدينة « القيروان » ظلت عاصمة للدولة الفاطمية حتى سنة ٣٠٣ هـ ، وهذه المدينة أسسها وبناها ، عقبة بن نافع » ولكن تطلعات المهدي إلى بناء مدينة أخرى تسمّى باسمه وتكون عاصمة لدولته ، جعلته يخرج بنفسه في أحد الأيام ليفتش في أرجاء البلاد عن أرض مناسبة يقيم عليها المدينة

المقررة ، فعثر على موقع يتصل بالبحر الأبيض المتوسط على بعد ستين ميلاً عن القيروان إلى جهة الجنوب الشرقي ، وكان يحيط به البحر من جهاته الثلاث ، فقرر أن يقيم مدينته على هذه الأرض الجميلة، ومنذ ذلك التاريخ سمّاها « المهدية ». ويروي التاريخ أن البناء بدأ فيها سنة ٢٩٧هـ ودام ستة أعوام، وفي نهايتهم انتقل المهدي مع عائلته إليها وقال كلمته المشهورة : « الآن أمنتُ على أبناء فاطمة » .

ويذكر التاريخ أنه بنى على مقربة منها مدينة ثانية سماها « زويلة » وهو اسم إحدى قبائل البربر ، ومما تجدر الإشارة إليه أنه عمّر فيها الأسواق والساحات ، والحدائق ، والشوارع ، والحمامات ، والمساجد ، وقسّمها إلى مناطق بحيث جعل لكل طبقة من التجار سوقاً خاصة به ، وهكذا بالنسبة للصنّاع كما أنه رتّب أصحاب المهن ترتيباً دقيقاً سبق فيه عصره ، ومن المفيد أن نذكر أنه جعل لها أرباضاً كثيرة آهلة وعامرة ؛ كما جعل لها خمسة أبواب ، وسور منيع يحتاط بها ، وفي هذه المدينة ازدهرت الصناعة ، وقامت الأسواق التجارية على أسس من التنظيم الحديث .

كل هذا، ويجب أن لا يسهى عن بالنا بأن التاريخ جاء

طافحاً بالأحاديث عن المهدي وعنايته بشؤون التربية والتعليم وإنشاء المدارس ، فقد أقام وشجع التعليم للكبار والصغار ، وبنى المدارس الكبرى والصغرى في المدن وفي بعض القرى بالإضافة إلى الاستراحات ، والخانات ، والمساجد ، والمآذن التي أولاها عناية خاصة ، وكان يولي هندستها وزخرفتها أهمية لأنها في تلك الأيام كانت تعطي صورة للدولة وللشعب عن الحكام وميولهم الدينية . أما الأسطول فكان شغله الشاغل، لأنه بعد أن أتم بناء«المهدية»قرر أن يجعلها المدينة البحرية الثانية بعد صقلية ، أو قل المرفأ التجاري الأول ولهذا عمد إلى استقدام الأخصائيين والنجارين من البلدان البعيدة ، ويضع تحت تصرفهم الإمكانيات اللازمة لبناء الأسطول الفاطمي البحري الذي رغب أن يجعله رمزاً لقوة الدولة ومظهراً لهيبتها . فالمغرب بلاد واسعة تتصل بجميع بلدان العالم وفي أطرافها خطوط متعددة أهمها الخط الأوروبي ، وهذا الخط يبدأ من بلاد الأندلس مجتازاً المغرب الأقصى والأوسط والأدنى حتى يصل إلى مصر ، ومن جهة ثانية كانت بين مصر وصقلية علاقات تجارية على مستوى مهم جداً وذلك بالنسبة لموقع صقلية الذي يأتي وسطاً بين الشرق والغرب . وهذا يجعل أكثر السفن الذاهبة من مصر إلى إيطاليا ، وجنوبي فرنسا

مضطرة إلى المرور عبر صقلية ، مع لزوم التوقف فيها لشراء ما تحتاجه من موارد المغرب ، أو بيع ما معها من الأصناف التي لم تكن موجودة في الجزيرة ، وكل هذا تمكن المهدي من تحقيقه .

ومهما يكن من أمر ، فإن إنشاء الأسطول البحري الكبير الذي تم إنشاؤه بفترة قصيرة يعود الفضل فيه إلى المهدي الذي ما ادخر وقتاً في سبيل استقدام الخبراء والنجارين والعمال ، ووضع الإمكانيات اللازمة تحت تصرفهم حتى جاء أسطوله من أحدث الأساطيل المقاتلة المزودة بآلات التدمير التي عرفت في تلك الأيام .

أفكار سبقت عصرها

حمل عبيد الله المهدي الأمانة بنفسه ، ولم يترك لأحد سبيلاً لمشاركته حملها . والأمانة لم يكن حملها والتصدي إليها عملية سهلة في بلاد حديثة وغريبة وبعيدة . فعلى المتصدي لحملها أن يتعرض لنقمة الناس وسخطهم وحسدهم ، كما عليه أن يتحلّى بالصبر ويكون جريئاً مقداماً لا يعرف التردد ، وأن يكون قد تعلّم من مدرسة الزمن . ومن تجاريب الحياة ، فالحكم مهمة شاقة . وإرضاء الناس — كل الناس ليس بالأمر الهين في عصر من العصور .

أجل . . . لقد كان على المهدي . وهو على رأس دولته الفتية أن يصون مصالح الناس الذين انصاعوا إليه ، وأن يحفظ كرامتهم ، ويؤمن حقوقهم . وحياتهم في العيش الرغيد ، والحياة الأفضل . كيف لا وهو المسؤول الأول ، والمرجع الأعلى الذي يلجأ إليه الفقير والغني . العامل والتاجر — الفلاّح

والمثقف ، وعلى الأخص المظلومين الذين هضمت حقوقهم ، وأسيئت معاملتهم ، وكل هذا يحتاج إلى حرية ومساواة وعدالة ومحافظة على هيبة الدولة ، وعدم التهاون مع المتآمرين والمستغلين في مجتمع عاش ردحاً من الزمن في ظل الزعامات التقليدية المستبدة التي تحكمت في النفوس وجردت الفرد من حقوقه وحريته ، وأشاعت الاستغلال – والاستثمار ، والظلم ، والتعسف .

أجل . . . علم عبيد الله المهدي بثاقب نظره وحكمته ، بأن لا حياة للدولة – أية دولة – إلاّ بإحياء الحياة الاقتصادية ، وتوفير الأمن والاستقرار ، وتأمين العيش الرغيد للمواطنين على اختلاف ميولهم ، ويدخل في هذا النطاق إحياء الصناعة والتجارة ، وإقامة صرح الزراعة ، فالدولة الفقيرة ذات الموارد الضئيلة لا يمكن لها أن تعيش ، أو تستمر بالحياة ، أو تتبوأ مكانتها في عداد الدول ، فهي على الغالب تبقى عرضة للثورات والانتفاضات ، لأن الشعب لا يضايقه من الحكام إلاّ حينما يتجاهلون ما يحل به من المصائب ، أو بلغة أصح حينما تقل الموارد ، ويجوع ، ويحرم من المواد الضرورية والغذاء ، بينما تكون طبقة خاصة عائشة في بحبوحة من العيش منعمة في قصورها . لهذا فإن تاريخ المهدي الحافل

بالإصلاحات والإنجازات يعتبر سجلاً فيه الفصول الرائعة التي تصح أن تصبح قدوة للحكام .

أجل ... وشجع الزراعة ، وأمر بفلاحة الأراضي المعطلة ، وجلب لها مياه الأنهر . واستقدم بذور النباتات ، والأغراس المثمرة حتى يعزى إليه تشجيع زراعة الزيتون ، وأشجار الحمضيات في بلاد تونس . وشجع الصناعات ، وخفف من الضرائب المفروضة عليها ، وعلى تصديرها ، وجعل لها سفن تجارية تجوب البحار في الشرق والغرب لنقل الصادرات ، وجلب الواردات . وكان لهذه السفن أسواق في كل مكان . وهذا كله لم يسبق للشعب المغربي أن رأى مثله . وعندما نرى أن المهدي يتطلع إلى مصر . فلأنه كان يطمح أن يجد من ثروتها ما يساعده على تعزيز قواعد دولته . ومد رواق سلطانها إلى بلدان أخرى . لأن الدولة الفاطمية التي بناها أصبحت بحاجة إلى موارد تسد حاجات الجيش والأسطول ورجال الإدارة وعمال الدولة .

وأوجد المهدي نظاماً عادلاً للضرائب . والرسوم المفروضة على التجارة والصناعة وكافة السلع سواء أكانت زراعية ، أم منتجات صناعية كما وضع الضرائب على البائعين الذين

يستخدمون الأماكن العامة لعرض تجارتهم ، وهكذا بالنسبة لأصحاب الحمامات والخانات ، وأصحاب السفن الخاصة ، والمصانع ، والمسالخ ، والمذابح ، وأصحاب الموازين والمكاييل ، وكل هذا درّ على خزينة الدولة الأموال ، وجعلها قادرة على الوقوف ، والتطلع إلى الأماكن البعيدة ، وإلى إجراء الإصلاحات العامة كإشادة المدارس ، ونشر العلم ، وإقامة المستشفيات ، ودور الكتب ، والمكتبات ، ودور الحكومة ، وإقامة الجسور ، والمعابر ، والمحطات وشق الشوارع ، وإقامة الحدائق العامة ، والساحات ، وتشجيرها بالأغراس .

اختيار الولاة والعمال

الولاة ، والعمال ، ورؤساء الدواوين ، الذين يقومون بالخدمات العامة هم روح الدولة ، ورمزها ، ودعامتها ، ومصدر قوتها ، لأنهم في كافة الأحوال يكونوا على اتصال مباشر بأفراد الشعب ، وبيدهم الإساءة والإحسان ، كما أنهم هم الذين يعطون الصورة الصحيحة لوجه الدولة وقوتها ، وضعفها ، لهذا فعندما اتسعت رقعة الدولة الفاطمية كان لا بد للمهدي من النظر في أمر اختيار الولاة والعمال الصالحين للإدارة وللتمثيل ، فهؤلاء من المفروض فيهم أن يكونوا على مستوى رفيع من التربية والأخلاق والأمانة والسمعة الطيبة ، يسهرون على مصالح الدولة والشعب بآن واحد ، يؤمنون النفقات ، والضرائب ، والمصروفات ، وجباية الأموال ، ويعاملون الناس برفق ، ولطف ، وإحسان .

كيف لا ؟ والعمال والموظفين هم عصب الدولة ،

والشريان الذي يفيض على جسمها بالحياة ، ولا شك أن البطانة هي مظهر كل حاكم أو أمير أو ملك فبقدر ما تكون هذه البطانة نزيهة وصالحة بقدر ما يكون الحاكم كبيراً وجليلاً بنظر الشعب والعكس بالعكس،والبطانة الخبيثة من شأنها أن تخلق المصاعب والمتاعب، وتؤلب الناس على الحكام،وأنه لمن المستحيل على أي حاكم أن يصل إلى هدفه وأمنياته ، أو أن يستقر في حكمه ، إذا لم يستند إلى بطانة وأعوان لهم من جدارتهم وضميرهم ووجدانهم خير ضمانة لإعادة الأمن والاستقرار ، وإيجاد الحرية والمساواة . وإقامة صرح العدالة ، وعدم التمييز بين الطبقات والمذاهب ، واتباع السبل التي تلزم التمسك بأهداب المثل العليا والأماني السامية .

من هنا نستطيع أن نؤكد بأن المهدي كان موفقاً إلى حد بعيد باختيار الولاة ــ والحكام ــ ورؤساء الإدارات ، وكل هذا ساعد على قيام دولته وإرساء قواعدها ، وأهم ما كان عليه من واجب هو إقامة ديوان الخراج وهو المولج بالنظر بشؤون الضرائب ، وفرضها ، وجبايتها ، وتأمين الأموال لصندوق الدولة وسد حاجات الجيش ، ونفقات الحملات العسكرية التي كانت تتوجه للفتح ، وإقرار السلام ، وإعادة الأمن والاستقرار .

الجيش

الجيش ما زال في كل دولة الدعامة الأولى . أو قل العرق النابض . أو العمود الفقري الذي يقام عليه جسم الدولة ، والحقيقة فإنه لمن المستحيل أن يستقيم الأمر لأية دولة من الدول مهما كانت إذا كان جيشها ضعيفاً ، وغير مرتاح من الناحية الحياتية . سيما إذا كانت الدولة في طور التأسيس .

والفاطميون . أو بلغة أصح عبيد الله المهدي أدرك منذ أن تسلّم شؤون الدولة الفاطمية . ان أهم ما يجب الاعتماد عليه لتثبيت دعائم دولته ، وتوسيع رقعتها هو إقرار الأمن والاستقرار والقضاء على الفتن . والثورات . ومؤامرات الأعداء المتربصين وكل هذا لا يقوم به إلاّ الجيش المخلص القوي ، والوفي لقائده وبلاده ، وكان أن عمل المهدي منذ الساعات الأولى على تنظيم الجيش الذي كان يعيش في فوضى ، وحياة عشائرية ، وإقليمية معدومة النظام ، فاقدة الانسجام ، وبفترة قصيرة

كما نرى جعله قادراً على خوض الحروب ، وفتح الأمصار ، وتأديب العصاة ، والقضاء على الثورات. ويحدثنا التاريخ بأن المهدي كان يملك فراسة ، وشعوراً ، وعلماً قلّما يخطىء باختيار الأعوان ، والقواد ، والتأكد من أمانتهم ، وإخلاصهم وعندما كان يحظى بأمنيته ، فإنه لا يتوانى عن إغداق الرتب ، والأموال ، والهبات عليهم مما يهيء لهم الحياة الكريمة ، وعندئذ كانوا من جهتهم لا يتقاعسون عن حمل سيوفهم وبذل أرواحهم بالدفاع عن الدولة ، وعن الخليفة الذي محضهم ثقته ، وعطفه ومنحهم كل ما يجب عليه .

هذا . . . ومن الجدير بالذكر أن ذلك الجيش كان مقيداً وملزماً ، بإطاعة أوامر القيادة العليا المسؤولة ، والتقيد بإطاعة الأوامر الصادرة إليه من رؤسائه مباشرة أيضاً ، وعدم الخروج على إرادة الكتيبة التي ينتمي إليها ، ويدخل في هذا النطاق مدارس التدريب التي أقيمت وفيها تعليم فنون القتال ، واستعمال الأسلحة ، والتقيد بالانضباط . . . وهكذا بالنسبة للقوات البحرية فقد أحدث لها قيادة مستقلة تحت أمرة « أمير البحر » الذي كان مسؤولاً أمامه ، وهكذا تمكن بفترة قصيرة من جعل الجيش قوة عظيمة نظامية لا أثر فيها

للمظاهر العشائرية أو الطائفية، أو الإقليمية بل شعارها الخدمة والإخلاص للدولة .

ويجب أن لا يسهى عن بالنا بأن المهدي ، أحب قبيلة « كتامة » وخصها ثقته ورعايته ، لأن على سواعد أبنائها قامت الدولة الفاطمية . ولهذا نراه يختار أكثر القواد من هذه القبيلة بل وأكثر الولاة ، فيزودهم بالصلاحيات التامة ، وبالإمكانيات السخية ، وكل هذا أكدته المصادر التاريخية مشيرة إلى أثره البارز في حياة الدولة الفاطمية واستمرارها في البقاء في المغرب تلك المدة رغم العواصف والأنواء .

والحقيقة فإن الدولة الفاطمية مدينة بوجودها للكتاميين أو بلغة أصح للقائد المحنك أبو عبد الله الشيعي الذي يعود الفضل إليه في استقطاب هذه القبيلة الكبيرة المحاربة ذات النفوذ ، يوم نزل بضيافتها ، وتصدر مجالسها وجعلها تنضوي تحت علم الدولة الفاطمية تلك المدة الطويلة ، دون أن يبدر منها أية بادرة تنم عن تمرد ، أو عصيان ، أو تطلع غير سليم .

الثقافة والادب

التاريخ لم يغفل الدور الذي لعبه الفاطميون سواء في المشرق أو المغرب في مجال الثقافة والأدب ، فذكر أنهم كانوا ميالون بطبيعتهم للأدب ، محبون للعلم ، وللفلسفة وللشعر ، وللتأليف ، فبيوتهم كما ذكر كانت زاخرة بالكتب ، والمؤلفات القيمة النادرة ، وعندما نعلم أن أكثرهم كان من طبقة العلماء والمؤلفين هان علينا ذلك .

أجل . . . لقد كانوا بطبيعتهم ميالون إلى جيد القول ، وصدق الكلام ، يقدرونه ، ويحلونه في نفوسهم ، وبالإضافة إلى ذلك يبذلون كل شيء في سبيل تشجيعه ، وإعلاء شأنه ، وكان أن قربوا العلماء ، وخلعوا على الأدباء ، وأجازوا الشعراء ، وهكذا أوجدوا في رحابهم مجموعة من الناس كانت موضع فخرهم ، واعتزازهم ، يوجهونها في الملمات كسلاح بوجه الخصوم ، والأعداء .

وعرفوا أيضاً قدر الدعاية . فاهتموا بها أي اهتمام ، واصطفوا كل عبقري وعالم أينما وجد . فجاءوا به ، وفرشوا أمامه المغريات . ووجهوه بعد ذلك إلى الأقاليم يدعو لهم ، بأطيب عبارات الثناء .

ونحن عندما نضع أمام أنظارنا الدور الذي لعبوه في «سلمية» والحركات التي أشعلوا نارها في الأفكار . وفي الأقطار ، والدعاية المنظمة التي بعثوها في كل مكان ندرك براعتهم ، وتفوقهم ، وأنه لمن دواعي الإعجاب أن ينطلق كل هذا من بلدة صغيرة واقعة في الصحراء . ومن منزل سري أقاموا فيه بأسماء مستعارة . هذا الفيض من الدعاية والتعاليم التي وصل بريقها إلى قلب اليمن والمغرب ومصر والخليج العربي وفارس ، وإلى كل مكان في هذا العالم العربي والإسلامي . . أجل لقد كان ذلك حدثاً بارزاً أفاق عليه ذات يوم العالم الإسلامي ، وهو يدرك بأن للعقلية العربية مدارك وتطلعات سبقت عصرها ، وقد أخذت عنها الأمم كل ما ساعد على حياتها . ووجودها ومهما يكن من أمر ونحن أمام تلك اللمحات نقف ونتساءل :

هل نجح الفاطميون في المغرب في مجال الدعاية الفكرية كما نجحوا في المشرق ؟ وهل تمكنوا من نشر مبادىء مذهبهم

الشيعي ، وإدخاله إلى العقول كما نشروه في عقول المشرقيين ؟

إن الجواب على هذا السؤال لا بد له من المرور عبر الحقيقة بحيث يعطي البيانات الواضحة المجردة من كل عاطفة وغلو ، فالمغرب العربي أو المغرب الإسلامي لم يستطع هضم التعاليم الشيعية ، أو تقبلها . أو إحلالها محل التعاليم السنيّة التي رضع لبانها ، أما الأسباب فعديدة ، وقد يطول الحديث إذا ما أردنا التعرض إليها ، وإيراد تفاصيلها ، فنحن نرى ان الفرد في المغرب كان يهرع إلى الإعلان عن قبوله بهذا المبدأ مسايرة للحكام ، أو تمشياً مع حقيقة وواقع الخليفة ، ولكنه لا يلبث أن يعود عندما تزول الأسباب ، وعندما نقول ذلك نذكر بأن الفاطميين بعد أن تمّ لهم نقل عاصمة ملكهم إلى الديار المصرية فتحوا أعينهم فلم يجدوا في ديار المغرب التي تركوها فرداً واحداً يدين بمذهبهم ، أو يعتنق عقيدتهم ، ولم تنفع الكتب الفلسفية ، والعلماء في المساجد الذين كانوا يدأبون على إلقاء الدروس .

خاتمة المطاف

يذكر التاريخ أن عبيد الله المهدي ، عاش ثلاثة وستون عاماً قضى منها خمسة وعشرون عاماً على سدة الخلافة في ديار المغرب ، وبعد وفاته تسلّمها « القائم بأمر الله » .

والحقيقة فتاريخ عبيد الله قد لا تفي به هذه الصفحات ، وأنّى لها وهو مؤسس دولة كبرى عاشت وازدهرت ، ولعبت دوراً على مسرح العالم في المشرق والمغرب . . . أجل في تاريخ المهدي قضايا كثيرة مبهمة وغامضة ومعقدة : وبحاجة إلى توضيح ، ولكن التاريخ وقف منها موقف عدم المبالاة مما يجعل الخوض في مجالها ضرب من المستحيل ، فالتاريخ يجب أن يستند إلى مصادر ، وكل تاريخ غير مسند إلى مصادر لا يقره الفكر ، ولا يصدقه العقل .

تعليقات

١ ــ أحد المؤرخين المصريين ذكر بان « القائم بأمر الله » الخليفة الثاني اضطهد أبناء المهدي بعد وفاته ، وعاملهم معاملة سيئة ، حتى أن أكثرهم اضطر إلى مغادرة المغرب ، والإقامة في مصر . إن هذا المؤرخ لم يذكر لنا المصادر التي استقى منها هذه المزاعم ؛ ولهذا بإمكاننا رفضها ، وعدم الأخذ بها .

٢ ــ أورد «جعفر الحاجب» بسيرته ... وجعفر الحاجب هذا خادم عبيد الله المهدي ورفيقه في رحلته من«سلمية» إلى المغرب . . . أجل أورد بسيرته القصيرة التي طبعها أحد المستشرقين قصصاً لعب فيها الخيال دوره ، ونحن نشك بصحة هذه السيرة الركيكة البدائية ونعتقد أن مصنفها انتحلها انتحالاً .

٣ ــ ذكر التاريخ بأن المهدي كان يملك ثروة طائلة ، وعندما خرج من منزله في « سلمية » دفنها في صحن ساحة

القصر . . . وعاد التاريخ فذكر بأن المهدي بعد أن استقام له الأمر في المغرب أرسل جعفر الحاجب وزوّده بالمعلومات التي ترشده إلى مكان الثروة المدفونة، فوصل سراً إلى «سلمية» وعاد بها — أي بالأموال — قد يكون في هذا القول بعض الحقائق، ولكن كان على المؤرخ أن يذكر بأن جعفر الحاجب لم يكن وحده في هذه السفرة ، وإنما كان معه رفقاء ثلاثة من أعوان المهدي .

٤ — ذكرت بعض المصادر بأن سبب انتفاضة أبو عبد الله الشيعي على المهدي تعود للمعلومات التي تحقق بأن المهدي ليس هو الإمام الأصيل وأن الإمام الفعلي هو القائم بأمر الله ؛ فرغب أن يعلن ذلك على الملأ ؛ ولكن المهدي عارض ذلك واعتبر ذلك تدخلاً في شؤون الأسرة الفاطمية ؛ ومحاولة لبذر بذور الشقاق بين المهدي والقائم مما يمهّد له السبيل للتخلص من الاثنين في النهاية . إن هذه المزاعم أيضاً لا تستند إلى مصادر ؛ وبعيدة عن الواقع .

المصادر التاريخية الاساسية للموسوعة

تاريخ الدولة الفاطمية : حسن إبراهيم حسن ١٩٥٨ .

الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية : حسن ابراهيم حسن ١٩٣٢ .

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي : حسن إبراهيم حسن ١٩٤٦ .

النظم السياسية : بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن : ١٩٣٩ .

عبيد الله المهدي : بالاشتراك مع طه أحمد شرف ١٩٤٥ .

المعز لدين الله : بالاشتراك مع طه أحمد شرف ١٩٤٧ .

كنوز الفاطميين : زكي محمد ١٩٣٧ .

تاريخ جوهر الصقلي : علي إبراهيم حسن ١٩٣٣

في أدب مصر الفاطمية : محمد كامل حسين ١٩٥٠ .

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق : محمد جمال سرور ١٩٥٧ .

مصر في عهد الدولة الفاطمية : محمد جمال سرور ١٩٥٧ .
مجموعة الوثائق الفاطمية : جمال الدين الشيّال ١٩٥٨ .
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية : محمد عبد الله عنان ١٩٣٧ .
نظم الفاطميين ورسوهم في مصر : عبد المنعم ماجد ١٩٣٧
السجلات المستنصرية : عبد المنعم ماجد ١٩٥٤ .
الإمام المستنصر بالله الفاطمي : عبد المنعم ماجد ١٩٦١ .
الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه : عبد المنعم ماجد ١٩٦١ .
نظم الحكم في مصر الفاطمية : مصطفى عطية مشرفه ١٩٤٨ .
سيرة جعفر الحاجب : و . إيفانوف ١٩٣٠ .
صلة تاريخ الطبري : غريب بن سعد
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة : الباقلاني ١٩٣٩ .
رسائل الحاكم بأمر الله كتب سنة ٤٠٨ هـ : مخطوط بدار الكتب المصرية .
عبقرية الفاطميين : محمد حسن الأعظمي ١٩٦٠ .
الصليحيون : حسين همذاني ١٩٥٥ .
افتتاح الدعوة : النعمان بن حيّون

المجالس والمسايرات : النعمان بن حيّون
الهمة في آداب أتباع الأئمة : محمد كامل حسين .
عيون الأخبار : إدريس عماد الدين .
فرق الشيعة : النوبختي .
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا : المقريزي .
نظام الوزارة في العصر الفاطمي : مقالة في مجلة الثقافة — جمال الدين الشيال ١٩٥١ .
أصل الذمة في العصر الفاطمي : مقالة في مجلة المقتطف— جمال الدين الشيال ١٩٥٤ .
البيان المغرب في أخبار المغرب : ابن عذارى .
سيرة الأستاذ جوذر الكاتب : محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيره .
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم : فوندر — ليدن ١٩٢٧ .
معجم البلدان : ياقوت الحموي .
كتاب البلدان : اليعقوبي .
تاريخ الرسل والملوك : الطبري .
تقويم البلدان : أبو الفداء .

المصادر الأجنبية

The Alleged - Founder of Ismaïlism - Bombay - W Ivanow - 1946 .

The Origins of Ismaïlism ; B. Luis .

The Quaddahid Legend : Abbas Hamadani .

Mémoires sur les Quarmates de Bahrein et les Fatimits - Leyden - 1886 - De Goeje - M.C.

Polemics on the origin of the Fatimis - Caliphs - Prince - Mamour - London 1934 .

Fatimid - Decrees - Stern - S.M. London .

Quelques Chroniques Anciennes aux derniers Fatimites 1937 .

L'impérialisme des Fatimides et leur propagande 1942 -1947 .

Essaie sur l'histoire des Ismailiens de la Perse : Defremery, M.C.

Fragments relatif à la Doctrine des Ismaïlis - Hamadani , Paris , 1874 .

Studies in the early Persian Ismaïlism - Leiden - 1948 .

The rise of Fatimids - Calcuta, 1942 .

A Guide to Ismaïli Literature : W. Ivanow, 1933 .

A Short History ot the Fatimid - Khalifate, 1923 .

Description du Maghreb - Leiden, 1860 .

The Letters of Al Mustansir - School of oriental - London 1934 .

En Quête au pays du Levant. (M. Barrès) 1924 .

فهرست المواضيع

